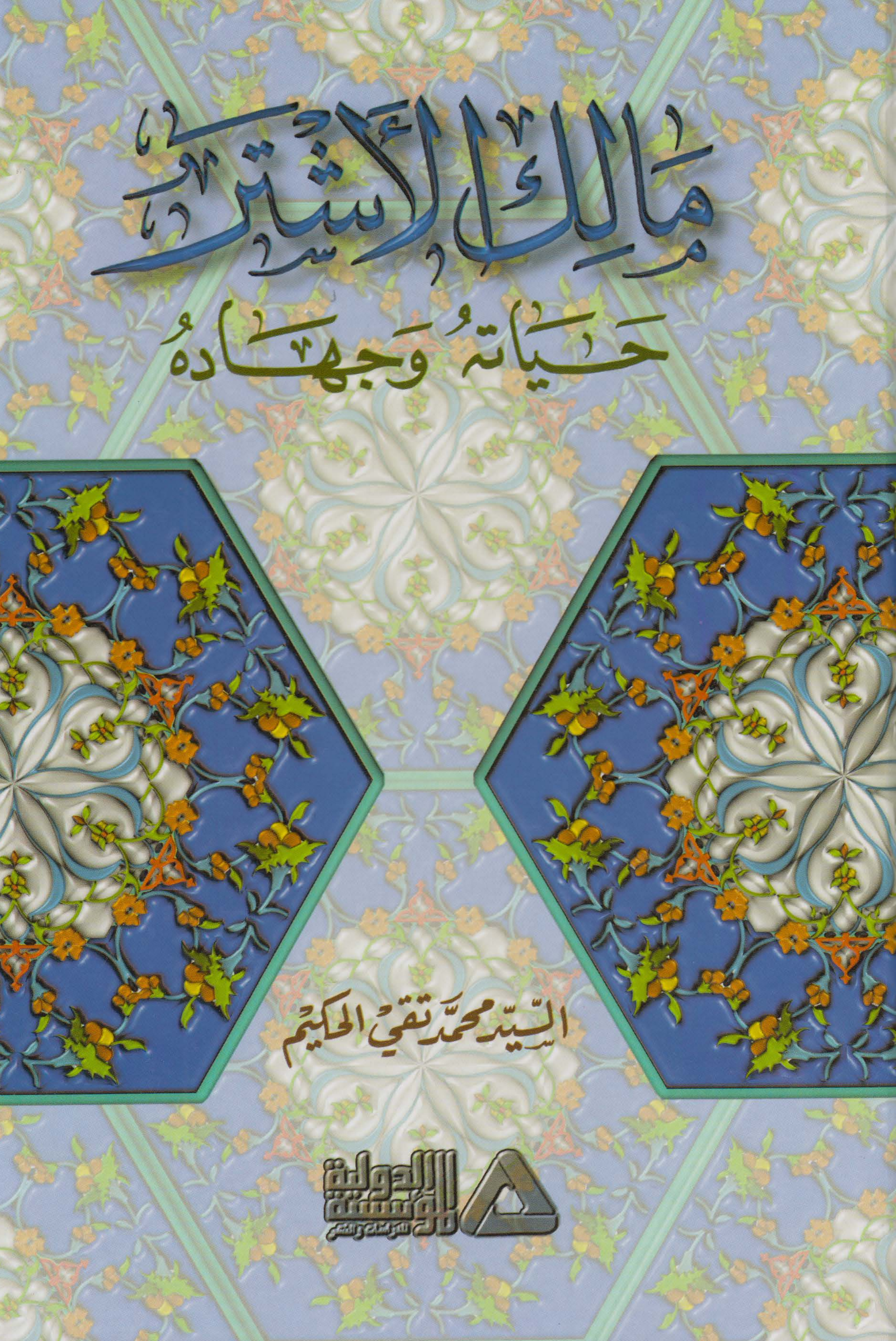
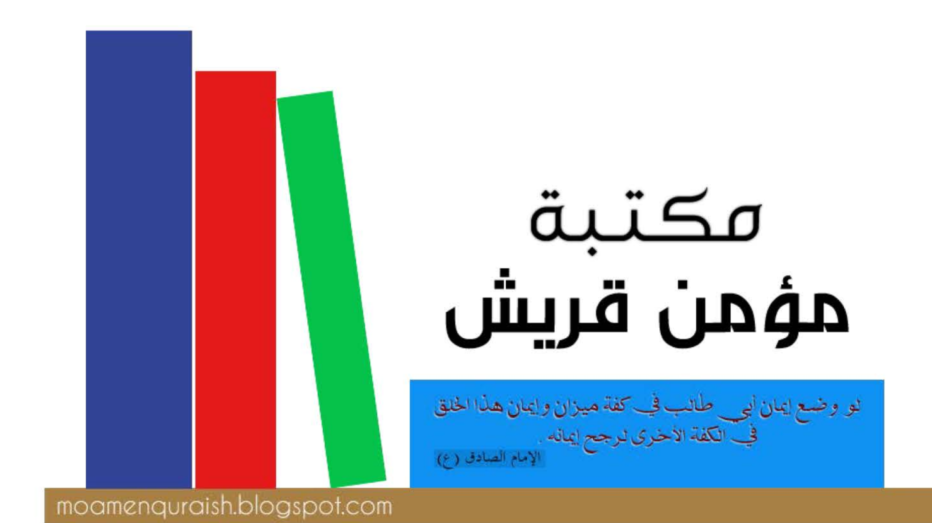

مالك الأشتر
حياته وجهاده
السيد محمد تقي الحكيم
المؤسسة الدولية للدراسات والنشر


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

مالك الأشتر
حياته وجهاده

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



بيـروت: مستديرة شاتيلا - قرب المعهد الفني الإسلامي
تلفـون: ٠٣/٧٧٧٠٧٢ - ٠٣/٨٦٦٠٤٤ خليوي
فاكـس: ٠٠٩٦١١ - ٨٢٦٥٠٤
ص. ب: ٢٥/٨٦ الغبيري

مالك الأشتر
حياته وجهاده

السيد محمد تقي الحكيم





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد فهذا كتاب كما ستقرأ يتعرض لشخصية هامة من شخصيات التاريخ الإسلامي الذي حفل به الفكر الإسلامي على مدى حقبة من الزمن وكان لها التأثير الكبير في رسم منهجية واضحة ـ صادقة جريئة تعبر عن الشخصية المؤمنة مالك الأشتر أحد أصحاب الإمام علي عليه أفضل الصلاة والسلام والذي وقف وقفة المؤمن الصلب الذي لا تأخذه في الله لومة لائم. كان صاحب الموقف في أصعب المراحل وأدق الظروف، عندما كان يلامس النصر في المعركة، كان عليه أن يوقف التقدم لأن الإمام علي (ع) أرسل له بالعودة.

كثيرة هي مواقف هذا الصحابي الجليل مالك الأشتر النخعي.

السيد الجليل محمد تقي الحكيم خير من كتب عن مثل هؤلاء لأنه لا يعرف الفضل إلا ذووه وهو المشهود له بالفضل والفضيلة.

إن مؤلف هذا الكتاب هو واحد من العلماء الأجلاء الذين خدموا هذا الدين العظيم بكل صدق وإخلاص. كان قريباً من العلم والعلماء منذ عقود من الزمن يدرّس في الجامعات كلية أصول الدين في بغداد ، كلية الفقه والحوزة العلمية في النجف الأشرف.

كتب في الأصول العامة للفقه المقارن ربما كان هو الأول الذي يكتب في هذا المجال بهذه الشمولية والموضوعية والسعة. عالم جليل من أسرة علمية هاشمية عريقة معروفة بالفضل والصلاح والتقى. السيد الجليل الذي لا يرغب بالألقاب ولا يعبأ بها، السيد محمد تقي الحكيم معروف في ندوات العلم ومحافل العلماء .

تفخر المؤسسة الدولية للدراسات والنشر أن تتشرف بنشر هذا الكتاب سائلين الله العلي القدير العمر المديد لسماحته والتوفيق والتسديد لما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين

والحمد لله رب العالمين

المؤسسة الدولية للدراسات والنشر

لبنان ــ بيروت ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

يشرفني أن أقدم للقراء الكرام كتاب (مالك الأشتر) لسماحة سيدي الوالد السيد محمد تقي الحكيم، عميد كلية الفقه في النجف الأشرف سابقاً وعضو المجامع اللغوية العربية.

والكتاب مجموعة محاضرات متسلسلة عن بطل الإسلام الخالد مالك بن الحارث النخعي وهو ممن أدرك النبي محمداً ﷺ فوصفه النبي الكريم بأنه (المؤمن حقاً) وشارك في حروب الردة واليرموك والقادسية، وكانت له بها بطولات مشهودة يذكرها له الرواة شترت عينه في إحداها جراء ضربة بالسيف من عدو لله فلقب بـ(الأشتر) وغلب عليه هذا اللقب فاشتهر به وعرف.

ومالك رأس في قبيلته يقول فتشهر إثر قولته السيف ويأمر فتجيش إثر أمره الجيوش وقد كان له مع الخليفة الثالث عثمان موقف، وفي يوم الجمل

مواقف، وفي صفين صولات وجولات.

وهو بعد ذلك والي الإمام علي عليه السلام على الجزيرة ونصيبين ثم واليه على مصر بعد ذلك وهو الذي قال فيه الإمام علي عليه السلام قولته الخالدة (كان لي كما كنت لرسول الله) وكتب إليه كتاب العهد المشهور يوم ولاّه على مصر، ذلك العهد الذي يعد من الوثائق المهمة في السياسة الإسلامية والذي لم ينل حظه من الدراسة المستوعبة الدقيقة بعد.

وفي الكتاب تحليل موضوعي للظروف التأريخية الخطيرة التي حدثت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودور الأحزاب والكتل السياسية المنظمة فيها.

وكتاب (مالك الأشتر) هو أول كتاب يصدر لسماحة السيد (دام ظله)، كتبه وطبعه وهو في أوائل العشرينات من عمره حينذاك وكان لصدوره صدى طيب في المحافل العلمية والفكرية والدوريات الثقافية والأدبية في تلك الفترة الدقيقة من تأريخ النجف الأشرف العلمي والفكري والثقافي والأدبي.

وقد قدم للكتاب في طبعته الأولى سماحة آية الله المغفور له الشيخ محمد رضا المظفر (قدس سره) أخ المؤلف وصاحبه ورفيق دربه بمقدمة ضافية تلقي الضوء على خصوصيات تلك المرحلة وظروفها وهي موجودة في صدر هذه الطبعة.

أخذ الله بأيدينا جميعاً لما يحبه ويرضاه فهو حسبنا وهو الغاية والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

عبد الهادي السيد محمد تقي الحكيم

١٩/ صفر/ ١٤١٨هـ

٢٦/ ٦/ ١٩٩٧م

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله

مقدمة الطبعة الأولى

بقلم سماحة آية الله الشيخ محمد رضا المظفر (قدس سره) عميد كلية الفقه ورئيس جمعية منتدى النشر

ـ ١ ـ

إن هاتفاً في دخيلة نفسي ـ لا أعرف مأتاه على التحقيق ـ يهتف بي منذ عشرين عاماً تقريباً إلى ضرورة تأليف مؤسسة تعنى بتوجيه حركة النشر والتأليف في النجف الأشرف. ولست أنا الوحيد أشعر بهذا الشعور فمعي جماعة غير قليلة كان همهم ذلك حتى كادوا أن يؤسسوا هذه المؤسسة قبل خمسة عشر عاماً.

وبدافع فكرة هذه الجماعة شرع العلامة الجليل والحجة الكبير المرحوم الشيخ محمد جواد البلاغي في تأليف كتابه «آلاء الرحمن» في تفسير القرآن، ليكون باكورة أعمال المؤسسة التي خنقت في مهدها.

واستمر الشيخ المجاهد في تأليف كتابه حتى وافاه الأجل بعد نشره للجزء الأول في حياته على نفقته الخاصة.

ومرد الشعور بضرورة هذه المؤسسة إلى إدراك أن النجف بلاد علمية من قديم القرون، وعاصمة للمرجعية في التقليد، والجامعة الأولى لدراسة العلوم الدينية والعربية، ولها سوق رائجة للأدب العالي، وفيها في كل عصر مؤلفون وأدباء، ولها في كل فن كتب وآثار. فهي من هذه النواحي غنية لا يضارعها بلد اسلامي آخر، لاسيما قبل عصر النهضة الحديثة.

إلا أن الذي ينقصها ـ ويجب الاعتراف به ـ تنظيم نشر ما تضم كنوزها من مؤلفات قديمة وحديثة، وتوجيه التأليف على النحو المرغوب فيه في هذا العهد، وتشجيع المؤلفين والناشرين في عصر راجت فيه الطباعة واتسقت حركات الثقافة واتسعت دور النشر، وحرمت منه بلادنا المقدسة.

فهي على ما فيها من مادة غزيرة منكمشة على نفسها لا تظهر آثارها كما يجب أن تظهر. وما يتفق أن ينشر من منتجاتها ـ وإن كان ليس بالقليل في حد نفسه ـ لا يبلغ الواحد من المئة إذا أردنا المبالغة، على أنه قد لا ينشر المنتخب والمختار من تلك المؤلفات، لأن ما يطبع على الأكثر إنما هو بنتيجة جهود فردية يقوم بها أشخاص المؤلفين أو من يمت إليهم بصلة.

وهذا ما أوجب الظن عند البعض بأن ما يقال عن العلم والأدب والتأليف في النجف الأشرف إنما هو من نوع الدعاية الفارغة، وقد يكون هذا معذوراً في ظنه، لأن طفرة العالم العربي فضلاً عن غيره في هذه الناحية ـ ناحية النشر والتأليف ـ لم تدع المجال للعذر في تأخر النجف عن ذلك، والمنتظر منها أن تصدر على الأقل كل يوم مؤلفاً طريفاً حسب ما يتناسب مع سمعتها.

ولكن هذا الظن فيه من الحيف العظيم الذي لا يعرفه حقاً إلا نفس أهل العلم بالنجف أو من يتصل بهم اتصالاً ثقافياً.

وينسب الدكتور مهدي البصير في كتابه الحديث «نهضة العراق الأدبية» طمس تلكم الآثار إلى قلة ذات يد المؤلفين والأدباء فتقعد بهم عن إذاعتها. وقد يكون هذا صحيحاً إلى حد ما، ولكن له سبب آخر هو ـ فيما ارى ـ سبب الاسباب هو عدم وجود مؤسسة كبيرة تعنى بذلك، وبالاصح هو عدم وجود شعور عام عندنا يقذف بالرجال إلى العمل المجدي في هذا السبيل وبتأسيس مشروع يليق بمكانة النجف العلمية والأدبية.

وقد كانت النجف تعتمد في نشر كثير من المؤلفات على مطابع إيران وتبرع المحسنين، ثم لما تأسست المطبعة التجارية فيها ثم كثرت المطابع من هذا النوع، لم تكن وافية بالغرض ولا محققة للواجب لامور يطول شرحها، على أن هذه المطابع على كثرتها اليوم هي تدأب وتعج بالعمل ولا نراها بالغة شيئاً مما يصبى إليه.

ـ ٢ ـ

ولما تأسس منتدى النشر على أساس هذه الفكرة السالفة ظهر بسرعة أن الشعور العام في النجف بل العراق بعد غير مهيأ لقبولها فكرة جديرة باهتمامه، على أن الرجال الذين اشتركوا فيه لم يكونوا في العدوة القصوى من محور النجف العلمي، بل هم في الصميم من جامعتها.

ومما يؤسف له أن الشعور العام لاجل ذلك لا يزال ينظر إلى من يدعو إلى هذه الأعمال الاصلاحية بنظر الريبة والشك، فقد يتصورهم أناساً استغلاليين لصالح انفسهم، أو بالاصح يتصور انها اعمال شخصية أكثر منها اعمالاً عامة، وكأنه لا يصدق أن الرجل يعمل للصالح العام إلا إذا كان إنساناً

كلياً مجرداً عن مشخصاته الفردية [والكلي لا وجود له في الخارج] فيغفل الرأي العام عن أن كل عمل مهما كان عاماً ولصالح المجموع لا بد أن ينهض به أفراد معيّنون، واشخاص لهم مميزاتهم الشخصية، كما شاهدنا شعور الناس عن مشروع حماية الاطفال بالنجف.

على أن رجال المنتدى برهنوا طيلة هذه المدة التي مرت على تأسيسه على انهم ابعد ما يكونون عن الاستغلال، بل ضحّوا بأكثر من اللازم وأكثر مما يتصور أن يضحي به بشر اعتيادي، فبذلوا كل غال ورخيص في تسيير هذا المشروع وتركيزه لاجل نضوج هذه الفكرة في مجتمعنا. واكثر الناس ـ فيما نعتقد ـ لا يشكون في اخلاصهم وتضحيتهم، ولكنهم مع ذلك يعتبرون المشروع شخصياً لأن رجاله الناهضين معينون لهم مميزاتهم الشخصية.

فإذا الواجب ـ يا رجال الاصلاح ـ أولاً خلق الشعور العام بضرورة الفكرة قبل تأسيس المشروع، على أن خلق الشعور العام يتوقف على مشروع ينهض بالدعوة ويعمل لاجل ذلك. وهذا ـ حسب ما أعتقد ـ هو الأمر الملقى الآن على عاتق مؤسستنا. وتأسيس كلية المنتدى ومدارسه ما يعين إلى حد ما على تحقيق هذا الشعور.

وإذا كنت ـ اليوم ـ أنا المسؤول الأول عن المشروع فقد تكون هذه الصراحة المكشوفة عن تفكير جماعتنا مما اواخذ عليها، ولكني شخصياً لا اجد ضيراً في اعلان الحقيقة، ويعلم الله اني لا أقصد انتقاد شخص معين بل أنا أكثر اخواني عذراً لجماعة كبيرة ممن وقف موقف المخاصم لمشروعنا، ولاسيما الذين نطمئن إلى حسن نواياهم ويطمئنون إلى حسن نوايانا وهم كثيرون ممن اشتغلوا معنا في المشروع وممن لم يشتغلوا.

ونحن مستعدون لتضحية جديدة بأنفسنا، فنتنحى عن العمل عندما نجد من يحبون أن ينهضوا به دوننا خصوصاً إذا اعتقدوا أنهم سيعطون

المشروع صبغة عامة بدخولهم، وليثقوا أنا عمال للمشروع أين ما كنا ومهما كانت صبغتنا فيه. ولا نريد أن نبرهن بهذا القول على حسن نوايانا.

إن هذا لا يهمنا بقليل ولا كثير بعد الذي كان. إنما الذي يهمنا أن ينهض المشروع نهضة تليق بسمعة النجف ويؤدي الواجب الملقى على عاتقه كاملاً وبأي ثمن كان حتى إذا كان ثمنه ارواحنا. وما ارخصها في سبيل الواجب. وقد صرحنا مراراً أننا لم نخط حتى الآن إلا خطوة قصيرة بالمشروع في سبيل ما يقصد من أهدافه.

ـ ٣ ـ

ولما توسعت اعمال المنتدى بقي الغرض الاقصى «النشر والتأليف» يشبه أن يكون مهملاً في سجلّ اعماله؛ ولكن ليس معنى ذلك أنه مهمل حقيقة؛ حتى تأسست له لجنة المجمع الديني منذ عامين تقريباً، وهمها الأول كان تهيئة اعضائها للتأليف والقاء المحاضرات النافعة ومبادلة الرأي فيما يجب العمل له في هذا السبيل؛ فتوفقت أن تجعل يوم الجمعة من كل أُسبوع يوماً لاستماع محاضرات الاعضاء بصورة متوالية ثم توسعت حتى كان اجتماع يوم الجمعة يشبه أن يكون يوماً عاماً يشترك في الحضور فيه جماعة كبيرة غير اعضاء اللجنة من اعضاء المنتدى وغيرهم، وزادت على ذلك باقامة الحفلات والمحاضرات العامة في شتى المناسبات لفائدة العموم، وقد شهدت النجف الاشرف في أُسبوع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بمناسبة ذكرى وفاته مهرجاناً في مدة أُسبوع كامل منقطع النظير.

وقد فكرت بالاخير أن تعد مشروعاً ابتدائياً كباكورة لاعمالها التي تنويها، وهو إعداد سلسلة مؤلفات صغيرة نافعة، فيها فائدة للخاصة وتثقيف للعامة.

وقد ظهر أول هذه السلسلة كتاب «الشيعة والإمامة»الذي لم تقصد فيه الربح المادي، واكثر ما استفادت منه أن استرجعت ما صرفت عليه، وبقي الربح المعنوي يخلد لها وللناس. ولأن مؤلفه أخي وشقيقي وأنا معه كنفس واحدة فلا يسعني أن أقول فيه كلمة اطراء وثناء.

وهذا بين ايدينا «الكتاب الثاني من السلسلة» «مالك الأشتر» الذي حلل فيه مؤلفه الاستاذ شخصية هذا البطل الاسلامي المجاهد بما يعطيك منه صورة واضحة تقصر عنها ريشة الرسام.

ـ ٤ ـ

إن كان لحكيم مصر «توفيق» في النبوغ، فإن حكيمنا «تقي» في لوذعية ونابغة في صلاح نباهي به شبابها وكتابها، وهو مؤلف هذا الكتاب

لقد رمزنا إلى حركة لجنة المجمع في المنتدى النشيطة فإن دريت فإن محورها هذا «الحكيم» النابغ، وهو في ريعان الشباب، وقد اوتي حظاً وافراً من قلم سيال وادب عال واسلوب رصين وخيال واسع.

ولولا أنه مني ما يشعر المرء بأنه عندما يتحدث عنه إنما يتحدث عن نفسه لكنت أتيت لك ـ أيها القارىء ـ بما يوفي تعريفه عندك، على اني أُقدم كتاباً لا كاتباً ومؤلفاً لا مؤلفاً أُترجم له، وأنت باستطاعتك أن تقرأه في هذه الصفحات التي تمثل لك نفسية المؤلف اللامعة، وروحه القوية، وادبه الرفيع، وبحوثه القيمة.

لا يكاد يمر اسبوع على المجمع دون أن يسمع الحاضرون محاضرة ثمينة لهذا الكاتب المطبوع من سلسلة محاضراته عن «زرارة بن اعين» أو محاضراته في «ندوة السمر» ونحوها أو محاضراته الأخيرة عن «مالك

الأشتر» التي تألفت منها مجموعة كانت كتاباً نقدمه للقراء وأنا واثق أن في نشره فتحاً جديداً في تصوير بطل من أبطال الاسلام وسيفاً من سيوف الله كان أكثر ما يعرف عنه الناس أنه شجاع مدرب وحواري أمير المؤمنين عليه السلام.

ولقد كان يعز علي ـ أيها الرجل ـ الذي احتضنتك كلية المنتدى في أول تأسيسها طالباً ثم وفيت فاحتضنتها استاذاً لعلوم البلاغة وعضواً في إدارتها. أقول لقد كان يعز علي أن تضن بآثارك عن اذاعتها ونشرها في الوقت الذي كان يجب أن يبرهن على أن في السويدا رجالاً ولجامعة النجف كتاباً يفتخر بهم.

ولئن كنت تعتذر ـ وما ملوم من اعتذر ـ بالإنشغال بتحصيل العلوم الدينية ودراسة الفقه وأُصوله فإن ذلك أمر يحول حقاً عن كثير مما يجب أن يعمله الطالب الديني. ومثلك على صواب. إذا انصرف إلى أهم ما يجب أن يصنعه المحصل السالك طريق الاجتهاد، لاسيما في هذه العصور؛ ولكني ممن يرى أن العصر أيضاً اقتضى أن يبرز رجال العلم في النجف باقلامهم للكفاح، وأن ينشروا آثارهم لتنوير الاذهان. وقد تقدم نعيي على تسامح اخواننا في هذه الناحية.

ولماذا اسسنا منتدى النشر ولماذا أسسنا بعد ذلك فيه لجنة المجمع.

مالي ولحديث الكاتب! أرجو ـ أيها القارىء ـ أن تعذرني من الاندفاع في الحديث عنه، فإن هذا الحبيب ينسيني نفسي، فيجذبها إليه كلما تحولت عنه إلى الحديث عن كتابه، على أني قد أخذت عليها أن أُقدم الكتاب لا الكاتب.

أقول أُقدم لكم «مالك الأشتر» حقاً. أُقدم شخص بطل الإسلام مالك، ولكن في كتاب؛ فإن هذا التصوير الذي استعمله الكتاب ولا أقول الكاتب

فاخشى أن يجرفني ذكره إلى الاستمرار في حديثه يجعلك تتمثل هذا البطل المنزَّه كأنك عشت في عصره أو كأنه عاش في عصرك ولئن كانت القنبلة الذرية ـ لو كان في عصرنا ـ لا نبقي قيمة لسيفه الصارم، فإن الخلق العام عندنا يبرزه مخلصاً مجاهداً فوق حدود الاخلاص والتضحية في سبيل الواجب اللتين عزتا في قومنا (الميامين).

واحسب أني أعطيت لمحة كافية عن هذا التأليف، فاقف عند هذا الحد، وإن لم أوفيه حقه؛ ولكني اكتفي بمعرفة القارىء ليطلع بنفسه على قيمة هذا السفر الأدبية والسلام عليكم.

محمد رضا المظفر

الإمام يقدم الأشتر
إلى أهل مصر

أما بعد: فقد بعثت إليكم عبداً من عبيد الله لا ينام أيام الخوف ولا ينكل عن الأعادي حذار الدوائر أشد على الكفار من حريق النار وهو مالك بن الحارث أخو مذحج فاسمعوا له واطيعوا فإنه سيف من سيوف الله لا نابي الضريبة ولا كلبل الحد.

علي

أمير المؤمنين

- ١ -

إن من عادة القدماء من العرب أن يحتفظوا لانفسهم بسلسلة من النسب تربطهم بمن يعرفون بالانتساب إليه، وهذه العادة نجدها الأن شائعة بين القبائل الريفية العربية والعراقية على الأخص. ولعل العلة في ذلك ترجع إلى عادات اجتماعية كانت متأصلة في نفوسهم إذ ذاك يعود معظمها إلى الاعتزاز بالنسب الصراح لدلالته على الخلوص من شوائب الهجنة والبغاء ومن هنا نجد الشعر العربي حافلاً بهذا اللون من الفخر.

وهذه الظاهرة هي التي استفزت انظار المؤرخين والنسابين من القدماء فاحتفظوا للعظماء من الرجال في حنايا الترجمة بسلسلة النسب الطويلة.

ولكن هذه الظاهرة لا تهم المؤرخ الحديث بقدر ما يهمه من الاحتفاظ بتلك السلسلة معرفة بعض الخصائص الفردية التي يمتاز بها بعض الأشخاص ليعرفوا مقدار ما أثروا على المترجم بسبب الوراثة ومقدار ما نقبل من تلك التأثيرات.

ومن هنا نريد أن نلتمس في هذه السلسلة التي يذكرها المؤرخون لسيدنا مالك بعض خصائصها لنعرف مقدار تأثيرها عليه.

ومالك كما يذكر المؤرخون هو ابن الحارث بن عبد يغوث، بن مسلمة بن ربيعة ابن... ابن.. إلى ان ينتهي إلى جده النخع ثم إلى جده الأعلى مذحج الذي عرفت باسمه قبيلة من أشهر قبائل العرب اليمانية وأكثرها قوة ومنعة.

والتاريخ لا يحدثنا عن أفراد هذه السلسلة حديثاً فيه شيء من التفصيل

لنستطيع أن نتعرف إلى جميع ما يتعلق بها من الصفات الطيبة وان كان قد حدَّثنا عن خصائصها العامة التي كانت تشيع في اغلب أفراد تلكم القبيلة كالكرم والشجاعة والشعر والخطابة فكان فيها الكريم المغدق والشجاع الفتاك والخطيب القدير والشاعر الصُوّال و . . . و . . . وقد عدّ لنا التأريخ ابطالاً من رجالات هذه القبيلة العريقة في نسبها اشتهروا بتلكم الصفات .

كما أنه حدثنا عن أصل هذه القبيلة وعن انتقالها من اليمن إلى العراق ثم إلى الكوفة بعد تمصيرها في أيام عمر بن الخطاب وعن وصول الاسلام إليها واعتناقها لمبدئه وايفادها جملة من رجالاتها إلى النبي ﷺ وتلكم صاحبها النخعي ولكنه اغفل تعداد الوافدين على النبي فلم نعرف هل كان في جملتهم الحارث أو الحرث ـ والد مالك ـ كما اغفل بعض النواحي الحيوية التي تتعلق بصاحبنا فلم يتعرض لها بقليل ولا كثير .

اغفل ترجمة أبيه فلم يتحدث عنه بحديث مفصَّل يمكننا الاطمئنان إليه واغفل تعيين زمن ولادته وكيفية نشأته وتربيته مع أننا ـ ونحن نريد أن نتعرف إلى دراسته التحليلية ـ أحوج ما نكون إليها وانتم تعلمون بأن الدراسة التحليلية التي نريد أن نستعين عليها ـ بالسيكولوجية الفردية ـ يتوقف جلّها على معرفة الادوار التي حشدت عقله الباطن بالصور التي كان لها كل الاثر في توجيه غرائزه وميوله .

وهذه الادوار هي التي تمر عليه وهو طفل وهي التي تكيفها البيئة والتربية وفيها تظهر تأثيرات الوراثة بشكل واضح .

فالتأريخ أغفل هذه الأمور واغفل سنة دخوله في الإسلام وتفصيل حياته قبل أن يكون سياسياً يتدخل في شؤون السلطان وقبل أن يشارك في تدبير شؤون المسلمين في زمن عثمان .

وعلى هذا فسيدنا مالك كانت له في التأريخ الذي شاهدناه حياتان مختلفتان.

تبدأ أحداهما من زمن ولادته حتى مبدأ خلافة عثمان وهي مجهولة أو تكاد لولا أحاديث مبعثرة هنا وهناك بوسعنا أن نستند إليها في معرفة بعض شؤونه.

وتبدأ الاخرى من أيام عثمان وننتهي بانتهاء حياة مالك رحمة الله وهي معلومة مفصلة لولا احاديث مبعثرة هنا وهناك يمكن أن تكسبها شيئاً قليلاً من الغموض لا يثبت للدقة في التحليل.

وسنبدأ الأن في دراسة حياته الغامضة فنقول

لقد اجحفنا في لوم التأريخ وتعنيفه على اغفاله بعض النقاط القيمة مع أن حجته ظاهرة إذا تصورنا بأن ولادته كانت متأخرة في الزمن عن ولادة مالك ونشأته وان الذين تعاهدوا تغذيته وتربيته لم يكن من همهم أمر مالك قبل أن يتدخل في السياسة؛ ومع ذلك فقد حفظ لنا في حنايا ضلوعه اخباراً مبعثرة نستطيع أن نستفيد منها بعض ذلك. وترك بعض الشؤون التي يمكننا أن نستفيدها من طبيعة ذلك العصر.

فإذا أردنا أن نتعرف إلى زمن ولادته جاءنا بما يمكننا الاعتماد عليه في ذلك فهو يذكر:ـ

١ ـ إنه ممن ادرك زمان النبي ﷺ وان لم يره ويسمع حديثه وان النبي قال ـ وقد ذكر عنده مالك ـ [أنه المؤمن حقاً] والذي يذكر ـ بحسب العادة ـ في مجالس العظماء وذوي النفوذ كالنبي ﷺ لا بد وأن يكون كبير السن رفيع الشأن في قومه ولا أقل من كونه في سني الشباب.

٢ ـ وأنه شارك في بعض حروب الردة ودار بينه وبين زعيمهم أبي مسيكة حديث تدل لهجته على أن صاحبه كان من رجال العرب المعدودين وكانت له في الحروب صولات وجولات قال صاحب لباب الأداب لما تواقف الجمعان في قتال الردة دعا مالك الاشتر أبا مسيكة الأيادي فخرج له قال ويحك يا أبا مسيكة أبعد الاسلام والتوحيد ارتددت ورجعت إلى الكفر فقال أبو مسيكة يا مالك إياك عني إنهم يحرمون الخمرة ولا صبر لي عنها فقال فهل لك بالمبارزة فقال نعم الخ والذي يدعو الزعيم للمبارزة عادة ويحدثه بما سمعت ويجده الزعيم كفؤاً له ويبارزه لا بد وأن يكون في سني الشباب على الأقل ولا بد وأن تكون شهرته قد سبقته إلى ذلك الزعيم.

٣ ـ وانه في واقعة الجمل صارع ابن الزبير فصرعه وجثا على صدره وانفلت من بين يديه فسجل ذلك مالك بابياته التي خاطب بها عائشة وعلل انفلاته بقوله

ونجـاه منـي شبعـه وشبـابـه   وانـي شيـخ لـم اكـن متمـاسكـا

إذن كان في ذلك الزمان شيخاً غير متماسك الاعضاء وهبه كان في عقده الثامن ليصح لابن الزبير أن ينفلت من بين يديه مع أنه مالك وإذا ضممنا هذه الأحاديث بعضها إلى بعض استطعنا أن نستكشف زمن ولادته على وجه التقريب وليكن قبل بعثة النبي بعقدين فوقه سنوات او دونه سنوات ولا يهمنا من تحديد ولادته اكثر من هذا المقدار.

وإذا أردنا أن نتعرف إلى تربيته عدنا إلى طبيعة العصر الجاهلي وإلى أساليب التربية عندهم فما لك حسب ما أظن لم تكن تربيته بدعاً من التربيات ولم تكن لها ميزة خاصة تميزها عن تربيات سائر اولاد الزعماء.

وحياة البادية حياة واحدة ذات لون واحد وصيغة واحدة تكاد لا تتغير ولا تتبدل.

تغذية للطفل بلبن كريم تدره عليه والدة كريمة أو مرضعة من المراضع ولباس من الوبر أو الصوف ثم اكل بسيط لا يتجاوز الخبز واللحم والسويق وإذا تجاوزه فللرز وبعض الفواكه التي تمنحها طبيعة العراق الرخية، وتعويد على ركوب الخيل والفروسية وايحاء بعزة النفس واعتداد بها واستهانة بالحياة إذا عارضت كرامته بنوع من المعارضة ونجدة للمستجير وتكريم للضيف واهتمام في شؤونه و. . . و. . . إلى آخر ما عندهم من عادات وتقاليد يغرسونها في نفسية الطفل الصغير.

واساليبهم في التربية أساليب ايحائية في الغالب فهم مثلاً عندما يريدون أن يتعاهدوا في نفسيته غريزة حب الظهور بالنماء يوقعون الرغبة في نفسه بالمسابقة في طراد الخيل أو الرماية مع صديقه على أن اوضاعهم الاجتماعية وحدها كافية في تنمية جميع الغرائز التي يمتاز بها العربي فالطفل أول ما يستقبل في صباحه المضيف ليسمع حديث الغزو والسلب والنهب وحديث الكرم والشهامة والنجدة والحماية عن الذمار وحديث الشاعر الفلاني الذي احتفلت به قبيلته واقبلت القبائل عليه للتهنئة لأن هذا سيكون لسانها الصوال وسيرفع من قيمتها في المجتمع بتسجيل مفاخرها والاشادة بذكرها والدفاع عنها وماذا عند العربي من الحديث غير هذا وامثاله، ثم إذا هو أوى إلى مخدعه طلب إلى أمه أن تحدثه بحديث يقتل به وحشة الليل ـ كما هي عادة الأطفال ـ فتهدهده أُمه بحديث ابائه الكرام وفتكهم واسرهم لأعدائهم ونهبهم لاموالهم وحفظهم لاعراضهم التي تهون عندها أعز النفوس واغلى النفوس وعلى هذا النحو يتلقى العربي دروسه في بيئته العربية التي تحمل طبيعتها طابع الجفاف من تخالف قبلات الشمس عليها ومن السموم الكاوي في الصيف والبرد القارص في الشتاء في تلك الخيام العربية التي لا تقي الجسوم من برد ولا حر كل ذلك مما يزيد في خشونة العربي وقوة

ساعده وسلام الله على الإمام، إذ يقول والشجرة البرية اصلب عوداً وابطأ خموداً.

وبهذه البيئة وهذه التربية يتأثر العقل الباطن ويمتلىء بالصور والاحاسيس التي تسيطر على ميوله وغرائزه فتوجهها كيفما تريد.

وسيدنا الأشتر عربي كريم له ما للعرب من الخصائص الاجتماعية العظيمة.

فهو عربي في نسبه عربي في بيئته عربي في تربيته عربي في عاداته وتقاليده.

نشأ في العرب وربي بتربية العرب وكانت فيه استعدادات نفسية تتقبّل كل هذه الايحاآت بقبولها الحسن مدة أيام تربيته فكان مثال العربي الصحيح في كل تلكم الصفات وسنرى في الأحاديث الآتية كيف تغلغلت فيه هذه الصفات والعادات وكيف مهدت لبلوغه هذه المكانة الرفيعة.

ويشب مالك ويدرج ثم يشب ويدرج فيصادف الاسلام ويدخل فيه ويتأثر بتعاليمه التي تعاهدت بعض تلكم العادات بالنماء من ناحية ولطفت من بعضها الاخر من ناحية اخرى ـ ويكون هو ـ [المؤمن حقا] كما يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد حصل في سبيل الذود عن الإسلام على لقب [الأشتر] المشرف الذي طغى على اسمه فاغفله عن بعض الناس كما يظهر من حديث مالك مع ابن الزبير وذلك عندما صرعه يوم الجمل وجلس على صدره واخذ ابن الزبير يصيح ـ اقتلوني ومالكا اقتلوا مالكاً معي.

يقول مالك ان سبب سلامتنا أن القوم لم يكونوا يعرفون مالكاً ولو قال والاشتر لقتلنا الناس:

والشتر اختلال في العين حدث بضربة جاءته من عدو له في احد ميادين القتال.

وقد اختلف المؤرخون في تعيين الواقعة فقال جماعة منهم انها شترت في واقعة اليرموك ويذكرون لها قصة وقال الاخرون انها شترت في بعض حروب الردة والقصة المتقدمة التي يذكرها صاحب لباب الآداب تنص على ذلك في تتمتها حيث يقول والتقيا ـ يعني مالكاً وابا مسيكة ـ فتطاعنا بالرمحين وتضاربا بالسيفين وسبق سيف أبي مسيكة إلى رأسه فنزل فيه إلى عينه فشترها بالسيف وينسحب مالك من الميدان ريثما يطمأن من سلامة رأسه ويعود وقد عصب رأسه ويدعوه للمبارزة ويقبل عليه ويتصاولان ويتجاولان ولكن سيف مالك كان في هذه المرة اسبق إلى رأس غريمه وهكذا يعود وقد قتل غريمه وحصل على لقب الاشتر.

ولا يهمنا الآن أن نرجح أحد القولين على الأخر وما ندري لعل عينه الشتراء كانت قد تشرفت بمصافحة السيف مرتين في سبيل الذود عن الإسلام وانما الذي يهمنا أن نسجل لمالك هذه المفخرة وأن نسجل له بأنه ساهم في توسعة الرقعة الاسلامية في زمن أبي بكر وعمر والتأريخ ان لم يحدد مقدار مساهمته في تلكم الحروب ولا مقدار علاقته بالخليفتين فقد سجل له كما سمعت بعض مواقفه في الردة واليرموك وسجل أنه كان من قواد حرب القادسية وكانت له في هذه الحروب جولات وجولات ترتهب من صولتها الشجعان.

- ٢ -

وقبل أن ابدأ في تصوير أيام عثمان وفي موقف مالك منها، أحب أن أنبهكم بأن هذه الأيام لا نستطيع أن نفهمها ما لم نعد إلى الوراء إلى زمن النبي ثم إلى زمن الخلفاء، لندرس هذه الظروف التي شاهدها الناس وأطمأنوا اليها وشاهدها مالك كما شاهدها الناس، ثم نعود لنقارن بينها وبين هذه الأيام التي أنكرها الناس وأنكرها مالك إنكاراً شديداً نحب أن نلمس أثره بهذا الحديث.

- قارئي الكريم - نحن الآن بين يدي صاحب الرسالة المقدسة ننظر المسلمين في جميع البقاع - ومن بينهم صاحبنا مالك - يمرحون في اجواء من العدالة الاجتماعية والمساواة في الحقوق الفردية، لا يميز فقير عن غني ولا يفرق ضعيف عن قوي ولا يسود عنصر عن عنصر، المؤمنون إخوة فلا فضل لعربي على عجمي ولا لقرشي على عربي ولا لهاشمي على قرشي وانما الفضل للمتقي من المسلمين ﴿**إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

ثم ننظر إلى النظم التي يعملون عليها فلا نجد غير كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وقد أوكل بهما جماعة من خيرة صحابته يعلمانهما الناس الذين بعدوا عن النبي إما لجهاد في سبيل الله وإما لبعد في المنزل وإما لحداثة عهدهم بالإسلام خصوصاً.

والفتوح الإسلامية قد بدأت في التوسع، فالناس بالنسبة إلى الانتفاع بهما على حد سواء بسبب تلكم البعوث الإرشادية، والنبي ﷺ دائب على تعزيز مجتمعه وإحكام الروابط التي تربط بعضهم ببعض سواء بتعيين القواد

الحازمين أو الولاة من ذوي الكفاية أو . . . أو . . .

ـ قارئي الكريم ـ نترك النبي ﷺ وقد علم الناس معنى العدل والمساواة ومراعاة حقوق الضعفاء. ووكل أمرهم من بعده إلى من يجد به الكفاية لإدارة شؤون الأمة ـ في يوم الغدير ـ نترك النبي على فراش الموت لننتقل إلى سقيفة بني ساعدة حيث يدبر المسلمون شؤون الخليفة من بعده، نتركه لننظر كيف يلقى حديث الغدير وكيف يدور الحديث حول إقرار مادة جديدة في نظمهم يسيرون عليها بالنسبة إلى التنصيب تكون ناسخة لحكم النبي، فهم بدلاً من العمل بالنص حاولوا العمل بالاختيار ولكنه اختيار مخصوص من قبل أناس مخصوصين.

ولنتذكر دائماً أن حديث السقيفة لم يتجاوز المدينة إلى غيرها بل لم يتجاوز أفراداً معدودين، وفُرض على الباقين فرضاً. فلبى جماعة وامتنع جماعة وكانت حروب الردة وكانت حروب مانعي الزكاة من المسلمين. هذا كله وصاحب الحق قابع في زاويته يندُب النبي ﷺ ويندُب حظوظ الناس لتأخرهم عن بيعته.

ونحن نعلم من حال إمامنا لا يهمه من أمر الخلافة إلا أن يحفظ حقوق المجتمع والأفراد وإلا أن يسير في العمل على رفع مستوى البشر على ضوء نظامية الكتاب والسنة. ولا ننسى أن بيعة الإمام قد أخذت منه أخذاً فيه شيء من الشدة والصرامة كما أخذت من قبل قسم من الصحابة أمثال العباس الذين مناهم بالأموال والسلطان، فلم ينجح بالنسبة إليهم وإن نجح بالنسبة إلى غيرهم أمثال أبي سفيان.

وهنا نلمح ظاهرة جديدة في توزيع المال والولاية نحتفظ بها لوقت الحاجة كما نحتفظ بظاهرة أخرى، نراها في تأخيره لعمر بن الخطاب عن جيش أسامة الذي أمر النبي بتنفيذه في حياته وكان فيه عمر بن الخطاب. ثم

لا ننسى أن هذه الصور كلها أو جلها كانت تمر على صاحبنا مالك، وكانت تتأثر نفسيته الكريمة بها كما تتأثر سائر النفوس. ولكن الخليفة كان محكم السياسة صارم التنفيذ يعمل على طبق النظم المتقدمة مع شيء من الاجتهاد يفرضه بلباقة، فلا يتحسس المسلمون أو يتحسسون فلا يجدون فيها شيئاً من المخالفة أو يجدون فلا يستطيعون الحديث عنها بقليل أو كثير.

وتنتهي أيامه فيترك العمل بنظام الاختيار ويأخذ بالنص فينص لا على ولده عبد الرحمن ولا على أحد من أقربائه الذين كانت حالتهم في زمنه لا تفرق عن حالة سائر المسلمين فلم يكن لهم شيء من الامتياز ولا على صاحب يوم الغدير بل على عمر بن الخطاب ساعده القوي في سقيفة بني ساعدة.

ويتولى الخلافة فيزداد فرق الناس من درته ولكنه هو يأبى إلا أن يعاملهم معاملة حسنة يهش لها القريب والبعيد فيعفو عن المسيء ويصفح عن المجرم ويدرأ الحد بلباقة غريبة عن بعض المسلمين ويسير بسيرة صاحبه تماماً. وهنا يجب أن لا ننسى حديث الفتوح في زمنه واتساع رقعتها وانشغال المسلمين في البعوث، مما قلل الارشاد وتعليم الناس بنظامي الاسلام ـ الكتاب والسنة ـ خصوصاً. والمسلمون قد انشغل قسم منهم بالفتوح وضويق القسم الآخر عن الخروج من المدينة لأغراض سياسية، كان قد أسرّ بها أبو بكر لصاحبه وخليفته مع العلم بأن حقوقهم كانت تصل إليهم كما يريدون.

ولا يفوتنا أن نرى المظاهر العامة في العصرين فهي مظاهر هامة تشبه إلى حد بعيد ما كان عليه النبي ﷺ في أيام حياته.

وإنما قلتُ: تشبه، ولم أقل هي عينها لأن القارىء الكريم يعلم بأن النظام الذي كان سائداً في عصر النبي هو القرآن وسنته ﷺ أما الآن فقد

حدث نظام آخر ربما يكون مخالفاً لتلكم الأنظمة، وهو (سيرة الشيخين) كما يعبر عنه عبد الرحمن بن عوف في حديث الشورى حيث يقول للإمام علي عليه السلام: «أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين». ومن إباء الإمام ربما نستفيد أن في تلك شيئاً من المخالفة لهما والإمام علي صُلب الايمان لا يحضر لقبول أي شيء يخالف ذينك النظامين، وإلا فما المانع من قبولها مع أن فيها تحقيقاً لغايته الكبرى التي خصه النبي الكريم بالخلافة من أجلها.

وهذه المخالفة لم تكن تهمّ أحداً من المسلمين حسب ما يظهر وربما لم يلتفت إليها إلا القليل، فقد فرضت بلباقة كبيرة نعرفها عند العمرين وحديث متعتان وصلاة التراويح وصلة عائشة التي قللها عثمان فقالت قولتها تلك: «اقتلوا نعثلاً فقد كفر» وتخلّف عمر عن جيش أسامة تعطينا انموذجاً من تلكم السيرة التي فرضها عبد الرحمن وأباها الإمام علي عليه السلام.

ولم تطل حياة الشيخ في أيام خلافته كثيراً وإن طالت بالنسبة إلى صاحبه، فقد عاجله أبو لؤلؤة رائد الحزب الأموي كما يقول العلائلي بطعنة نجلاء كادت أن تأتي عليه في الوقت. ويحمل إلى الدار ويجتمع المشاورون عليه فيستشيرهم فيمن يخلّف على الناس ويشيرون عليه بولده عبد الله ولكن سياسة عمر تأبى عليه ذلك، فيرد عليهم بقوله: إن عبد الله لا يحسن أن يطلق زوجته ومثله لا يليق بالخلافة وحسب آل أبي الخطاب أن يذهب بمسؤوليتها عمر.

وما أدري ما كان رأي الناس إذ ذاك؟ أكانوا يتصورون أن الخليفة يمكن أن يعدل عن الإمام علي بعدما علل لهم تخلفهم عنه بصغر سنه وقد كبر الآن وافرغ عن قيمته السياسية بقوله: لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن، وعن قيمته العلمية: بقوله لا يفتين أحد وفي المسجد علي، أو

قوله: لولا علي لهلك عمر؟

ما أدري أكانوا يشكّون بأن الأمر سيصير إليه بعد ابن الخطاب، خصوصاً وقد تألق نجمه في زمنه وازداد حب الناس له ورغبتهم في أن يعود إلى المنصب الذي اختاره الله له وحال صغر سنه دون ما يريد، وعلى الأخص أولئك الذين لا تعارض سياسة الإمام شيئاً من رغباتهم ـ وقد يكون من بينهم صاحبنا مالك ـ وما أدري بماذا استقبل الناس حكم عمر الأخير بقضية الخلافة؟

فهو حكم لم يألفوه قبل هذا. فالنبي نصَّ والأمة رجعت إلى الاختيار وأبو بكر نص وعمر يجمع بين النص والاختيار. فهو يجعلها شورى بين ستة كان من بينهم علي وعثمان ولكنه يقربها من النص إذ يحدد حرية المنتخبين، فليس لهم أن يميلوا عن كفة عبد الرحمن بن عوف وعبد الرحمن لا يميل عن عثمان، إذن فالخليفة نصَّ على عثمان ولكنه بطريق ملتوية كوَّنت للإسلام أحزاباً جديدة.

ومن الطبيعي أن كل واحد من هؤلاء الستة كان قد غازلت نفسه اماني الخلافة كما غازلت أتباعه وأنصاره، وبهذا ضم إلى أحزاب أولاد الخليفتين أحزاباً أخر سنلمح أثرها في الأحاديث الآتية.

ويموت عمر وقد كهرب العقلية الجمعية بسيرته وسيرة صاحبه، فصارت في عداد الفروض على الخليفة الجديد.

وتجتمع الشورى والناس تتطلع بشوق ونهم إلى معرفة الخليفة، ويلمح المقداد انصرافاً من عبد الرحمن عن صاحبه فيدوي بصيحته: ما رأيت مثل ما أُوذي به أهل هذا البيت بعد نبيهم، واخيراً نفترق الشورى عن تنصيب عثمان ولكن بشروط ثلاثة:

الأول : أن يطبق أحكام القرآن .

الثاني : أن يطبق السنة النبوية .

الثالث : أن يطبق سيرة الشيخين .

والآن فلننظر موقف الخليفة الجديدة من هذه الشروط الثلاثة وموقف مالك من موقف الخليفة الجديد .

ـ ٣ ـ

أما موقف الخليفة من تلكم الشروط فقد كان موقفاً أغضب الكثير من المسلمين عليه وأرضى عنه جماعة بني أمية ومن يلف لفهم فقط.

وذلك أن الظاهرة التي اختص بها عثمان دون غيره من الخلفاء كانت ظاهرة غريبة لم يألفها المسلمون في تلكم العصور، وهي الاستجابة للنزعة القبيلية، وقبيلة عثمان هم بنو أمية وبنو أمية ـ كما يذهب جملة المؤرخين ـ لم ينصحوا للإسلام طرفة عين، وقد عرفوا بين الناس بعدائهم لصاحب الرسالة، وحديث الحكم بن أبي العاص ومروان بن الحكم مع النبي حديث مشهور، ثم حديث أبي سفيان الذي كان يعتقد أن رسالة محمد انتصار لقبيلة على قبيلة لا دين على أديان كما صرح بقوله: انظروا إلى ابن أبي كبشة ـ يعني رسول الله ﷺ ـ كيف سمت همّته حتى قرن اسمه باسم الله في الأذان.

وكما أعرب عنها بفعلته النكراء وذلك عندما ولي الأمر عثمان، وطلَب من خادمه أن يأخذ بيده إلى القبور ـ وكان أعمى ـ ويلمسه قبر حمزة أسد الله، ويأخذ الخادم بيده ويلمسه القبر فيركله برجله وتنفرج شفتاه عن أقبح كلمة يفوه بها ذلك الأعمى وهي: إيهٍ أبا عمارة إن الذي كنا نتقاتل عليه بالأمس هو اليوم في أيدي صبياننا.

وتجتمع ندوة أمية ولم يكن فيها أجنبي وذلك بعد خلافة عثمان، فيدخل هذا الأعمى ويسأل الناس هل في الدار من يحتشم ثم يطمئن من عدم وجود الأجنبي، فيرسل كلمة تمثل لك عقيدته تماماً: تلقفوها يا بني أُمية

تلقف الكرة فو الذي يحلف به أبو سفيان لا جنة ولا نار وانما هو الملك.

والتأريخ لم يحدثنا عن إنكار الحاضرين من بني أمية عليه إنكاراً جدياً، وربما تكون هذه الكلمة قد صادفت مواقع الرضا من نفوسهم فاطمأنوا إليها جميعاً.

والاستجابة للنزعة القبيلية لم تكن معهودة في زمن النبي والعمر ين كما رأينا في الحديث السابق، وإنما كانت عاطفة جاهلية كان يظن أنها ماتت بموت ذلك العهد المظلم. غير أن الخليفة عثمان يبعثها من جديد فيرسل على الحكم ويرسل على مروان بعد أن بعدهما النبي ولعنهما وبعد أن أصر على تبعيدهما العمران تبعاً لسنة النبي.

وهذه الظاهرة تبرز في مقامين هامين.

الأول: في نظرته إلى توزيع العمال على الأمصار. فقد كاد أن يستعمر الولاية عن الخليفة بنو أمية، وهذا ما لا يستطيع أن يهضمه سائر الصحابة. خصوصاً وقد كان في أمية أمثال ابن أبي سرح ممن أخبر النبي ﷺ عنهم بأنهم من أهل النار، وكان توزيعه على هذه الصورة.

الوليد على الكوفة.

عبد الله بن أبي سرح على مصر.

معاوية بن أبي سفيان على الشام.

عبد الله بن عامر على البصرة.

سعيد بن العاص على الكوفة بعد عزل الوليد.

والتاريخ يحفظ لنا في حناياه قضايا طريفة عن أولئك الولاة الذين اعتقدوا بأنهم صاروا في نجوة عن تعاليم الاسلام، وسنختار الآن لك منها

بعض ما يريحك من جد القول ومرارته في هذا الصيف القائض، ونحيلك على التأريخ في التعرف إلى سائر قصصهم التي تقترب كثيراً من هذه. وليكن هذا البعض من والي الكوفة لئلا نبتعد عن صاحبنا مالك الذي كان يشاهد اعمال ولاته عليها وينكرها في نفسه وقد يجاهر بالإنكار كما سنرى ذلك.

يذكر المسعودي في مروجه: أن الوليد بن عقبة كان يشرب الخمر مع ندمائه ومغنيه من الليل إلى أول الصباح، فلما اذنه المؤذنون بالصلاة خرج منفصلاً في غلائله فتقدم إلى المحراب في صلاة الصبح، فصلى بهم أربعاً وقال: تريدون أن أزيدكم. وقيل أنه قال في سجوده وقد أطال: اشرب واسقني، فقال بعض من كان في الصف الأول: ما تريد لا زادك الله من الخير، والله لا اعجب إلا ممن بعثك إلينا والياً وعلينا أمير، أوكان هذا القائل عتاب بن غيلان الثقفي.

وخطب الناس الوليد فحصبه الناس بحصباء المسجد فخرج يترنح ويتمثل بأبيات تأبط شرا.

ولست بعيداً عن مدام وقينة ... ولا لصفا صلد عن الخير معزِل
ولكنني أروي من الخمر هامتي ... وامشي الملا بالساحب المتسلسل

وبذلك يقول الحطيئة:

شهد الحطيئة يوم يلقي ربه ... أن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تمّت صلاتهم ... أأزيدكم ثملاً وما يدري
ليزيدهم أخرى ولو قبلوا ... لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو ... خلوا عنانك لم تزل تجري

وهذه الأبيات ـ مع ظرافتها ـ تحمل التهكم اللاذع الجميل وما أظنكم تغفلون عن ذلك وعن خصوص هذا البيت.

حبسوا عنانك في الصلاة ولو خلوا عنانك لم تزل تجري

ولو كنت ممن يقنعون بأحكام القدماء في النقد لقلت بأن هذا البيت الذع بيت في اشعار العرب إذا صح هذا الاستعمال.

ويقول صاحب المروج: إن الكوفيين هجموا عليه وهو سكران مضطجع لا يعقل فأيقضوه من رقدته فلم يستيقظ ثم تقيأ ما شرب عليهم من الخمر، فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا من فورهم إلى المدينة فأتوا عثمان بن عفان فشهدوا عليه، فقال عثمان لأبي زينب الأزدي وأبي جندب الأزدي: وما يدريكما أنه شرب خمراً، فقالا: هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية ودفعا إليه خاتمه، فرزأهما عثمان ودفع في صدورهما.

وهنا تظهر للناس ظاهرة جديدة وهي تعطيل حدّ من حدود الله بهذه الصراحة، ولا عذر في ذلك إلا أنه من بني أُمية، ولكن الإمام يصر على إقامة الحدّ عليه ويدور حديث طويل لا يهمنا تسجيله الآن.

وبعد لأيٍ عزله عثمان وولى عليها سعيد بن العاص، وكان هذا لا يقل شراً عن ذاك وقد دارت بينه وبين مالك ملاحاة منكرة سنأتي على تفصيلها.

وهذه السيرة لم يكن يألفها المسلمون في زمن النبي والشيخين من أحد من الولاة أي كان، ولو كان فلم يألفوا أن يسكت الخليفة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات.

أما المقام الثاني: الذي برزت فيه هذه الظاهرة فهو نظرته إلى توزيع الأموال، فقد كان يألف الناس ـ كما رأينا في الفصل السابق ـ أن يوزع المال على السواء، وإذا تجاوز ذلك الحد في أيام الشيخين فذلك لأغراض سياسية لا تدوم وإلا فابن الخطاب كان يحج مع ابنه ومجموع النفقة ستة عشر ديناراً ومع ذلك يقول لابنه: لقد أسرفنا في صرف المال.

وعثمان كان يعطي من بيت المال عطاءَ مَن لا يخاف الفقر. وحسبك أن تعلم بأن البدر التي حملت إلى عثمان من تركة عبد الرحمن بن عوف الذي اختاره للناس خليفة، كانت تحول بين عثمان والواقف كما يحدث صاحب المروج. وحسبك أن تعلم أن يعلى بن أمية خلّف بعد موته خمسمئة ألف دينار عدا ديونه. وابن أبي الحديد يسجل لنا بعض الأموال التي وزعها على قبيلته وهاكم قائمة الحساب:

مروان بن الحكم	خمس ارمينية كله
عبد الله بن خالد بن اسيد	أربعمئة ألف درهم
الحكم بن أبي العاص	مئة ألف درهم
عبد الله بن أبي سرح	جميع ما افاء الله به من فتح افريقية
أبو سفيان	مئة ألف درهم
الحرث بن الحكم	مئة ألف درهم

هذا عدا الاقطاعات التي أقطعها لهم، كفدك لمروان وسوق تهروز الذي تصدق به النبي ﷺ على المسلمين فاقطعه عثمان الحرث بن الحكم وعدا مال العراق الذي وزّعه فيهم. وهذا التوزيع نفسه لم يطق تحمل تبعته أمين ماله زيد بن ثابت، فجاء إلى عثمان بالمفاتيح وهو يبكي ويستقيله وعثمان يقول: أتبكي لأني وصلت رحمي.

ثم مراعي المدينة التي حماها عن غنم المسلمين وخصها بهم، وهذه ارستقراطية فرضها عثمان لقبيلته على الناس، ولم تكن لتتحمل من قبل الاصحاب الذين شاهدوا النبي ﷺ وشاهدوا العمرين ولم يشاهدوا هذه الارستقراطيات.

ومن هنا كثر الإنكار عليه وتجاوز حدّ التهامس إلى الإعلان، فكتبت

صحيفة سجلت فيها المآخذ على عثمان وحملها عشرة من الصحابة وتوجهوا إليه، غير أن سطوة الخليفة وسلطته وتنمره من أجل قبيلته وقف دون سير الصحابة، وسار عمار وحده يحمله إيمانه وثباته فلم تعترضه هذه العقبات ويدخل على الخليفة ويدور حديث طويل ينتهي بضرب عمار بالسوط الذي اتخذه للتأديب بدل الدرة التي كان يستعملها النبي والشيخان، ثم سحقه برجله حتى أصابه الفتق مما أغضب حلفاء عمار عليه وسائر المسلمين.

وهذه العقوبات لم تكن لتستطيع أن تقف لعمار ولأمثاله كأبي ذر ومالك فتمنعهم من الانكار، وهذا أبو ذر يبعد إلى الشام ويهان في الشام ويؤتى به على بعير يقلق به حتى أدمى ساقيه، وهو مع ذلك ما ترك الإنكار عليه حتى بعد إلى الربذة وحتى حرم على الناس مشايعته.

وهنا يجب أن لا ننسى حديث الاحزاب التي تكونت من حادثة الشورى وعملها السري، فقد كان لاعمالها أعظم الآثار وابن قتيبة يحفظ لنا في ثنايا تأريخه وثيقة قيمة تصور لنا بعض تلكم الأعمال.

وهذه الوثيقة كتاب أُرسل من بعض رجالات الأحزاب إلى من بمصر من المسلمين، ولعله أُرسل نظيره إلى العراق وإلى غيره من البلدان. وحديث مالك الأشتر مع طلحة والزبير الذي جاء فيه أنه قال: وهذا كتابكم وصل إلينا ـ يشير إلى ذلك الكتاب ـ وذلك في أحرج ساعات عثمان يدلنا دلالة واضحة على ما قلناه، وهاكم نص الكتاب.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

من المهاجرين الأولين وبقية الشورى إلى من بمصر من الصحابة والتابعين.

أما بعد: أن تعالوا إلينا وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها.

فإن كتاب الله قد بدل وسنة رسوله قد غيرت واحكام الخليفتين قد بدلت، فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان إلا أقبل إلينا واخذ الحق لنا وأعطاناه، فأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وأقيموا الحق على المنهاج الواضح الذي فارقتم عليه نبيكم وفارقكم عليه الخلفاء. غلبنا على حقنا واستولى على فيئنا وحيل بيننا وبين امرنا وكانت الخلافة خلافة نبوة ورحمة وهي اليوم ملك عضود «كذا» من غلب على شيء أكله.

وهذا الكتاب كما ترون كتب بلهجة عاطفية تستثير كل من يحمل طاقة الإيمان بين جنبيه إلى الاستجابة إلى ما فيه. فالصحابي الكريم الذي يذكر عهد النبي فيذكر عدله ورأفته يخبر عن خليفة المسلمين عثمان بما يخالف كتاب الله وسنة نبيه فلا يثور للدفاع عن مبدئه، إن هذا لا يمكن أن يكون.

ـ قارئي العزيز ـ سقت هذا الكتاب بهذا التعليق البسيط لتطمأن معي إلى أن حديث الأحزاب كان من أهم العوامل المؤثرة على عثمان.

أما سائر العوامل التي شاركت في التأثير ـ ولم نذكرها ـ فكثيرة جداً وسنتعرّض الآن للمهم منها بشيء من الاختصار.

أ ـ ضربه عبدَ الله بن مسعود وغضب هذيل من اجله.

ب ـ درؤه الحد عن عبيد الله بن عمر.

جـ ـ اتمامه الصلاة بمنىٰ مع وجوب القصر.

د ـ تقريب مروان وتقديمه على أصحاب رسول الله من أهل الشورى وغيرهم وأخذه بإشاراته.

هـ ـ إعراضه عن الأخذ بما يشير به الإمام علي عليه السلام وسائر

أصحاب الشورى.

و ـ صيحة عائشة: اقتلوا نعثلا فقد كفر.

ز ـ حديثه مع المصريين الذين كتب إلى واليه أن ينكّل بهم بدل أن ينعزل عن الولاية كما وعدهم عثمان.

حـ ـ إعراض عبد الرحمن بن عوف عنه وقوله للإمام علي عليه السلام ـ وقد تطارحا حديث عثمان وقال له الإمام إنها منك يا عبد الرحمن ـ: إحمل سيفك وأحمل سيفي.

ـ قارئي العزيز ـ هذه صورة من أيام عثمان احببت أن اسجلها كما يصورها التأريخ لاستطيع الابتعاد عن الاستجابة للعواطف.

أما موقف مالك الذي مهدنا له بهذا الحديث الطويل من هذه الأيام فذلك ما سندرسه في الفصل الآتي.

- ٤ -

هذه الأدوار الثلاثة التي صورها لنا القلم في الفصلين السابقين، هي التي شاهدها مالك وشاهدها سائر المسلمين وهي التي تمثلت أمامه بلونين مختلفين.

أُولاهما: كان يصور المظاهر الاسلامية بما فيها من العدل والانصاف والاحتفاظ بالظواهر العامة شائعة في عهد النبي ﷺ تماماً وفي عهد العمرين في الجملة كما يعبر الفقهاء وثانيهما كان يصور المظاهر العامة وفيها شيء من الجدة وشيء من القدم، فهي جديدة إذا قيست بما قبلها من أيام النبي والعمرين، وهي قديمة إذا لوحظ قياسها بما قبل النبي، فهي أقرب ما تكون إلى المظاهر القديمة منها إلى المظاهر الحديثة.

فكان من الطبيعي أن يتنكر المسلم المؤمن بتقاليده الإسلامية لما يشاهده من تدهور المظاهر الإسلامية الروحية والاجتماعية.

ومالك هو المؤمن حقاً كما يعبر النبي في شهادته السابقة، له ما للمؤمنين من المواقف وعليه ما عليهم. والتأريخ لم يحدّثنا عن مواقفه بأكثر مما حدثنا عن مواقف إخوانه من المؤمنين أمثال أبي ذر والمقداد وعمار، ولم يكن نصيبه من الألم في سبيل إنكاره عليه بأكثر من نصيب إخوانه هؤلاء.

وإذا اختلف عنهم بعض الاختلاف فذلك لضرورة كانت تدعوا إليها ظروفه الخاصة، وذلك لأن مالك كان يختلف عن اولئك في القوة والمنعة. فهو سيد مطاع في قومه وهو سيد مطاع في بلده وهو إذا تكلم فلا يتكلم إلا

بقوة آلاف من السيوف تشهر بأمره وتغمد بأمره، بينما كان أولئك الرجال لا يمثلون إلا أنفسهم. ومن هنا اختلف حكمه عن أحكامهم.

فإذا كان واجب أولئك أن يجاهروا في الدفاع عن مبادئهم بألسنتهم، كان واجبه كذلك حيث ينفع اللسان. وإذا كان قد اعوز اولئك السلاح والرجال ليشنوا على هذه التقاليد حرباً شعواء، كان قد توفر لديه ذلك السلاح وتلكم الرجال فواجبه أن يصرخ في شحرجة السلاح، إذا لم تنفعه صرخاته اللسانية السلمية وذهبت ادراج الرياح.

وهو كما عرفه الإمام علي عليه السلام: «لا يخاف وهنه ولا سقطته ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم ولا إسراعه إلى ما البطأ عنه أمثل».

حاول أن يجادل بالتي هي أحسن، فكان جزاؤه من قبل الولاة جزاءً مرّاً لا يستساغ طعمه لأمثاله من الزعماء، ولكنه هو قابل ذلك باطمئنان وهدوء لعل الله يصلح بإنكاره السلمي حالاً من أحوال الولاة والخليفة.

كان في الكوفة وكان من ولاتها سعيد بن العاص وكانت له مع الوالي أحاديث جمّة، انكر فيها عليه بعض الأعمال التي كانت تصدر منه. وينقل لنا صاحب المروج بعض تلكم الأحاديث وإليكم أوجه نموذجاً منها: قال الوالي وقد جلس إليه سماره وكان فيهم مالك الأشتر: إن هذا السواد فطير لقريش.

قال مالك ـ وقد صعب عليه أن يسمع هذه الأنانية التي تميز قريشاً عن سائر المسلمين وتجعل لهم حقاً من حقوق المجتمع من دون أن تستند إلى مبرر نفسي: أتجعل ما أفاء الله علينا في ظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك.

وتلاحى معه في الكلام، فكتب سعيد إلى عثمان بشأنه فكان نصيبه

نصيب أبي ذر عندما أنكر على عثمان، وكتب عثمان إلى سعيد أن سيره إلى الشام، وكأن الشام هي المنطقة الوحيدة التي ربيت تربية أموية خالصة لا تؤثر عليها الدعايات كما يظهر من حديث معاوية مع عمار وعلي، وذلك حيث يقول له: إن في الشام مئة ألف فارس كل يأخذ العطاء ـ من مال المسلمين طبعاً ـ مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم لا يعرفون علياً ولا قرابته ولا عماراً ولا سابقته ولا الزبير ولا صحبته ولا طلحة ولا هجرته ولا يهابون ابن عوف ولا ماله ولا يتقون سعداً ولا دعوته الخ.

ويسير مالك ومعه جماعة من المؤمنين إلى الشام، فيستقبلهم معاوية بوجهه الكالح ويتنمر لهم وتقع بينه وبينهم ملاحاة تنتهي بقيامهم إليه وأخذهم برأسه. وأخيراً أعيت معاوية الحيل معهم فكتب إلى عثمان، فسيرهم إلى حمص ثم إلى الكوفة أو بالعكس. وعلى حمص كان من قبل معاوية الشاب المتهور عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وفيها شدد عليهم غاية التشديد فكان يسمعهم ألوان السباب وكان يركب الخيل ويتركهم يسيرون في ركابه ماشين.

وهكذا استمر على حالته تلك إلى أن اعتقد بأنه استطاع أن يميت إيمانهم وعقيدتهم في الدفاع عن مبدئهم في صدورهم، فكتب إلى عثمان في شؤونهم فأمره أن يعيدهم إلى الكوفة وقيل إلى المدينة ثم إلى الكوفة، فعاد أولئك إليها وعاد إنكار مالك على الوالي والخليفة.

وأخيراً لم يجد مالك بداً من الشخوص إلى المدينة بنفسه في نفر من أصحابه يطلبون من الخليفة أن يحول سعيداً عن ولاية الكوفة وليولّ عليهم من بعد ذلك من يشاء. ولكن الخليفة يمنيه ولا يبتّ بأمر قبل أن تجتمع ندوة أمية المؤلفة من عماله على الولايات، ليطرح فيها ذلك الحديث وتجتمع الندوة وتدور المفاوضات وتنتهي عن إقرار كل واحد على ولايته، وإذا

بالوعود التي كان يعطيها الخليفة تتلاشى في الأثير، ويخرج ابن العاص وكان قد دس نفسه بذلك المؤتمر ويستقبله طلحة والزبير ويسألانه عما وراءه كأنهما أرسلاه بالبحث عن مهمة.

وما يدريك لعله كان يقوم لهما بوظيفة التجسس على الخليفة باعتبارهم زعماء أحزاب، ويجيب عمرو بن العاص: «الشر ما ترك شيئاً من المنكر إلا أتى به وأمر به الخ».

وجاء الأشتر فقالا له: إن عاملكم الذي قمتم فيه خطباء قد ردَّ عليكم وأمر بتجهيزكم في البعوث وبكذا وكذا، فقال الأشتر: والله قد كنا نشكو سوء سيرته وما قمنا به خطباء فكيف وقد قمنا، وأيم الله على ذلك لولا أني انفدت النفقة وأنضيت الظهر لسبقته إلى الكوفة حتى أمنعه دخولها، فقالا له: فعندنا حاجتك التي تقوتك في سفرك، قال: فاسلفاني إذن مئة ألف درهم، قال: فأسلفه كل واحد منهم خمسين ألف درهم.

وهذه الحادثة توضح لك عمل الأحزاب المنظم الذي كان يعمل من وراء الستار للقضاء على الخليفة وللكيد له، وإلا فما عهدنا طلحة وما عهدنا الزبير يقرضان الأموال بهذه السهولة لو لم تكن المآرب تعمل عملها الجبار في نفوسهم.

ويسير مالك وقد قبض المال ووزعه على أصحابه ويجد الراحلة ليدخل الكوفة قبل سعيد بن العاص ويسبق سعيداً ويصعد المنبر وسيفه في عنقه ما وضعه بعد ويقول: أما بعد، فإن عاملكم الذي أنكرتم تعديه وسوء سيرته قد رد عليكم وأمر بتجهيزكم في البعوث، فبايعوني على أن لا يدخلها.

فبايعه عشرة الآف من أهل الكوفة ويخبر سعيد بواقصة فيعود من حيث

أتى. وهكذا بدأ مالك يستعمل السنان حيث أعياه تأثير لسانه الصوال ـ ولكنه رحمه الله كان كما يقول الإمام لا يخاف وهنه ولا سقطته ـ فلم يخرج بجيشه الجرار إلى الخليفة بل لم يقابل الخليفة بقليل ولا كثير حرصاً على المحافظة على الأمن والهدوء وحفظاً للدماء، وقد كتب إلى عثمان: أنا والله ما منعنا عاملك إلا ليفسد عليك عملك ولِّ من أحببت.

ولك أن تتصور حالة الخليفة إذ ذاك وتأثره النفسي من هذا التمرد عليه وإن كان قد اطمأن حسبما أظن لهذا الكتاب الذي كتب بلهجة بريئة يطفح عليها البر بالخليفة والشفقة على الدولة، الذين لم يرعهما الخليفة عند ما ولى عليهم سعيداً. وأخيراً يسأل الخليفة عمن كان في زمن عمر فيوليه وإذا هو أبو موسى الأشعري.

وهذه الحادثة ـ أعني حادثة سعيد ـ تركت في نفس مالك انفعالات شديدة جديدة هي أعمق من جميع تلكم الانفعالات. وهذا أمر طبيعي، فالحادثة قد أثارت في نفسه غريزتين؛ غريزة الاحتفاظ بالكرامة لأنها كانت موجهة لشخصه، فهو الذي طلب عزله وهو الذي وعد وهو الذي قوبل بهذا اللوم من المقابلة؛ وغريزة المحافظة على قداسة الدين باعتبارها من التقاليد المتغلغلة في نفسية المؤمن.

وهذه الحادثة تمس كرامة الدين الحنيف وإلا فما كان المعهود كما رأينا في زمن النبي والعمرين ان يعرض مجتمع للشقاء ليسعد فرد أو أفراد، وما كان المعهود أن يؤمر على المسلمين من يخالف الكتاب والسنة بصراحة ويصر على إبقائه لأغراض فردية.

ويحج[١] مالك وهو بعد في ثورته النفسية فيمر على الربذة، وإذا

(١) وفي الطبري وابن الأثير ان حجته هذه كانت قد سبقت الحوادث المتقدمة.

ذكرنا الربذة تذكرنا تلك القرية الحقيرة التي لا يسكنها غير ثلة من اليهود ولا يمر عليها غير بعض المنقطعين وهي تبعد عن المدينة غير قليل، وتذكرنا ذلك الشيخ الصادق الذي لم تكن الخضراء قد اظلت اصدق ذي لهجة منه، وقد عرضه صدقه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر إلى أن ينقل في البلدان على اسوأ حال. فمن المدينة إلى الشام ومن الشام إلى المدينة ومن المدينة إلى الربذة القرية التي هي أبغض ما تكون إليه، لأنها تبعده عن بلدته التي ضاقت به ذرعاً فلفظته في العراء ولأنها تبعده عن بيت الله الذي ود لو يقضي بقايا عمره في التنسك به بعيداً عن عالم السياسة، فأبي عليه.

تذكرنا كل ذلك وتذكرنا جلسة هذا الشيخ في كسر بيته ومعه ابنته الصغيرة وزوجته، وهو يتذكر ما عدَّ له النبي من المصائب التي ستجري عليه وآخرها انه سيموت في الربذة، كل ذلك في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات.

وكأني به أتمثله وهو جالس على وسادته يشكر الله على ما ابتلي به ويشكر الله على صبره على البلاء، ثم يتذكر أن ساعة الموت قد قربت منه فيأمر زوجته بأن تعد بقايا طعامه لضيوف جدد سيقدمون عليه، فتعد الطعام ويجلس جلسة المنتظر ثم يأمرها أن تتطلع إلى قارعة الطريق لتنظر هل قدم عليهم الاضياف، وتتطلع فلا تجد ثم تتطلع فترى الاضياف فتبشر الشيخ بذلك، ويأمرها أن تدعوهم إليه فيقبلون عليه ويقبل عليهم ويجلس الجميع فيتحدثون.

وكأني بأصوات الأضياف كانت تخرج مشفوعة بآهات لمنظر الشيخ البائس وأنات لحالة الإسلام، ولكن الشيخ يحدثهم بحديث عن النبي ﷺ فيطربون لسماع اسمه ويحنون لعهده الكريم وتطمأن نفوسهم لحديث الشيخ.

قال الشيخ: كنت في جماعة من الصحابة بين يدي صاحب الرسالة، فقال ١ سيموت أحدكم في فلاة وسيشهد الصلاة عليه ودفنه جماعة من المؤمنين، ثم يعقب الشيخ فيقول وكلهم ماتوا في بلدة إلا أنا، فانتم المؤمنون ثم يطلب أن يكفن بثوب رجل لم يتدخل في وظائف السلطنة فلا يجد ذلك إلا عند شاب انصاري ومن هنا نعلم أن مالكاً كان قد زاول بعض الوضائف الحكومية في أيام الخلفاء، واخيراً يتشهد الشيخ ويتجه إلى القبلة ويلفظ نفسه الأخير فيرتفع صوتا الطفلة والزوجة بالبكاء ويرجع صداه شيوخ جلسوا حول الجنازة، ثم يقوم هؤلاء بتجهيزه، ويقدم مالك للصلاة عليه، ويوارونه اخيراً في حفرته، ثم يقفون عليها ليودعوه بكلمات تأبينية. ثم ارسلها اولئك على القبر واحداً بعد واحد ويجيء دور مالك فيجرد سيفه ويمسح القبر بذيل السيف وكأنه يريد أن يقول ما قيمة الفاظ ترسل في الأجواء فتتلاشى في الأثير ويذهب أثرها من النفوس، ان تأبين مثل هذا الشيخ الجليل سيف يجرد ليرسل كلمات التأبين في رؤوس مناوئيه الذين جلبوا عليه هذا البلاء.

وأخيراً تكلم قال: اللهم هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ عبدك في العابدين وجاهد فيك المشركين لم يغير ولم يبدل ولكنه رأى منكراً فغيره بلسانه وقلبه حتى جفي ونفي وحرم واحتقر ثم مات وحيداً قريباً، اللهم فاقصم من حرمه ونفاه من مهاجره وحرم رسول الله ﷺ.

وهذه الكلمات صورت لنا ما استفدناه من ثورته النفسية على رجال الحكم وتأثره الشديد لهذه الاوضاع، ثم رأيه في هذا الشيخ المجاهد الذي لم يغير غير المنكر بلسانه وقلبه فجفي وحرم من مجاورة قبر الرسول، كل ذلك في سبيل انكاره للمنكرات.

ومن هذه الحادثة تتأزم انفعالاته النفسية وتزداد وتثور فيه ثائرة الايمان فيجدّ السير إلى المدينة ومعه عيال الشيخ، وفي المدينة يلتقي برؤساء الأمصار

ويتداولون الأمر فيتفقون على الوقيعة بعثمان أو يعتزل الأمر ويجيء دور الأحزاب، فيلعب لعبة الكثير ولكن الإمام علياً كان يكره الفتنة فكان كلما اشتد الأمر توسط فيه، إلى أن اتفق الجميع بمعونة الإمام على أن يتوب عثمان عن كل ما أخذ عليه ويصلح شؤون الناس فيتركونه.

ومن هنا نعرف ان ثورتهم كانت بدافع الايمان الصحيح لا بدافع الاطماع، ويخرج عثمان ويخطب في المسجد ثم يعلن توبته على رؤوس الأشهاد فيضج الحاضرون بالبكاء ويرد على بكائهم بدمعة وتعهد باصلاح شؤونهم ويقوم الجميع شاكرين للخليفة توبته، ولكن الشيخ قد سلم زمام اموره بيد الشاب الطائش مروان ويقبل الشاب فيغزوه من نقطة الضعف في نفسه ويستدرجه بكلام خلاب إلى أن يعود عن توبته ويعود عن توبته على لسان مروان فتزداد الحوادث شدة ويضايق في داره من جديد ويطلب الناس تسليم مروان، اليهم فيمتنع ويزداد تأثر الثوار وتزداد انفعالاتهم فيرسل عثمان إلى الأشتر ما يريد الناس مني فيجيبه الأشتر واحدة من ثلاث ليس عنها بد، قال عثمان ما هي قال الأشتر: يخيرونك بين أن تخلع لهم امرهم فتقول هذا امركم فقلدوه من شئتم وإما أن تقتص من نفسك فان ابيت هاتين فالقوم قاتلوكم، ولكن عثمان لا يجيب إلى واحدة من الثلاث، فيستمر الحصار واخيراً يقضى على عثمان.

أما صاحبنا مالك فلم يباشر القتل بيده وكان شأنه شأن سائر المسلمين الذين طافوا بالدار.

قارئي العزيز ـ هذه العوامل التي درسناها الآن هي أهم العوامل التي أثرت على مالك فاوقفته مع عثمان موقفه ذاك وإلا فجميع ما صدر من عثمان واخذ عليه كما صور في الحديث السابق كان له تأثيره النفسي على مالك.

ـ ٥ ـ

وتنتهي واقعة الدار فيستقبل الناس ازمة هي من أشد الأزمات واصعب الأزمات التي شاهدها الإسلام في تأريخ حياته المقدسة وكيف ذلك.

تصوروا يا سادة هذه الطوائف الكثيرة من الناس التي اشتركت في واقعة الدار، وتذكروا أنها كانت مختلفة في البيئة، مختلفة في المزاج، مختلفة في المكانة الاجتماعية، مختلفة في انتمائها للاحزاب، مختلفة في أغراضها واهدافها من هذه الحركة، ففيها المصري والكوفي والبصري والمدني وفيها السيد وفيها المسود، ثم فيها من كان يخضع لاغراضه الفردية التي لا تمت إلى مبدئه الاسلامي بابسط الصلات، وفيها من كان يخضع للاستجابة للدوافع الدينية إلى هذه الثورة حسبما يرى فيها كل ذلك، وفيها فوق ذلك أيدي الزعماء للاحزاب السياسية تكيف الوضع كيفما تريد تذكروا ذلك وتذكروا أن عقليتها مجتمعة عقلية جمعية تستجيب بطبعها لاضعف المؤثرات، وإذا كان كذلك كان علينا أن نتصور حالها بعد وصول نبأ خروج أهل الشام وقسم من الأمصار إلى المدينة لنصرة عثمان، وبعد قتلهم لعثمان وبعد استسلام كل واحد منهم لوعيه الفردي يعرض عليه هذا المقدمات ونتائجها وكأنني الآن اتمثلهم جميعاً وهم لا يتجاوزون في تأملاتهم هذه الضروب.

الأول: أهل الأحزاب وهؤلاء يعانون في انفسهم عقداً نفسية شديدة اشتركت في تكوينها غرائز متعددة كغريزة الطمع في ما كانوا يؤملون، وغريزة الخوف من جيوش أمية والخوف من معارضة الأحزاب الباقية لو هموا وربما اثرت عليها فسلبتها حقها.

والثاني: ويتمثل بالمؤمنين الذين استجابوا للدافع الاسلامي في تلك الحركة، يتأمل في نفسه ضعف الاسلام الروحي في ذلك اليوم وما بعد اليوم، وإذا شاع في البلدان أن الخليفة قد قتل ولم يبايع لأحد من الناس استحال أن يجتمع أهل الامصار على خليفة من بعده وربما استقل كل في قطره فيتشقف برد الدولة الاسلامية، ويكون هو من جملة الأسباب فتصيبه بلبلة نفسية شديدة تعود به إلى أشد الانفعالات أثراً في النفوس.

والثالث: ويتمثل في أصحاب الاطماع الفردية، يستعرض في نفسه الوان الاطماع التي كان قد فوتها عليه عثمان، ويستعرض جيش الشام ثم يستعرض من يأمل أن يتولى الحكم فيخاف على اغراضه أن تفوت وقد عرض نفسه للهلاك فيصاب بدوار فكري وهكذا وهكذا، ولكن هذه الضروب باجمعها كانت تلتقي في تفكيرها عند نقطة واحدة وهي ضرورة إقامة الخليفة بسرعة وذلك إما ليسلموا من غائلة أمية أو ليحفظوا الدين الاسلامي من الفوضى أو ليمهدوا السبيل لاشباع تلكم الرغبات، وتلتقي هذه الطوائف وكلها تهتف هتافاً لا شعورياً بضرورة الزعيم ومن ذا يكون.

هنا المشكلة:

المرشحون للأمر كثيرون، فهذا طلحة وهذا الزبير وهذا علي وهذا سعد وهذا ابن عمر وهذا... وهذا...، ولكن كيف السبيل إلى اتفاق الكلمة بسرعة قبل أن تعم الفوضى والاهواء كما رأينا مختلفة وهب أن الكلمة أمكن أن تتفق على شخص واحد فأين الرجل الذي يستطيع أن يتحمل هذه المسؤوليات، وما يدري ما سيلاقي من عمال عثمان ومن أنصار عثمان الموزعين في سائر الامصار، ثم ما يدري ما سيلاقي من هذه الطوائف المرشحه وعقليتها كما قدمنا عقلية جمعية ربما تنقلب لابسط الاشياء، هنا المشكلة أيضاً.

وعلى هذا فعندنا مشكلتان؛ مشكلة اتفاق الكلمة على الزعيم ومشكلة تقبل الزعيم لهذه المسؤولية، ولننظر الآن ما تصنع هذه الطوائف في حل هاتين المشكلتين.

ينادي صوت في هذه الجماهير إلى الزبير إلى الزبير فيندفع الكوفيون، وينادي صوت إلى طلحة إلى طلحة فيندفع البصريون، وينادي صوت إلى علي إلى علي فيندفع المصريون، وهؤلاء هم أظهر المرشحين ولكن واحداً من هؤلاء لا يحضر لتحمل هذه الاعباء الثقيلة التي لا يأمل لصاحبها النجاح قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه (بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثان والناس يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر والمصريون يلحون على علي وهو يهرب إلى الحيطان ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه والبصريون طلحة فلا يجيبهم) إلى أن يقول (فمضوا إلى سعد بن أبي وقاص فقالوا إنك من أهل الشورى فلم يقبل منهم ثم راحوا إلى ابن عمر فأبى عليهم فحاروا في امرهم) واخيراً يجتمع الناس على الزبير فيقوم فيهم خطيباً ويقول فيما يقول: (أيها الناس إن الله قد رضي لكم الشورى فاذهب بها الهوى وقد تشاورنا فرضينا علياً فبايعوه) ولعله يقصد بذلك أن يحمل هذه المسؤولية علياً في هذه الأزمة لاعتقاده ـ حسبما اظن ـ ان حاملها لا ينجح مهما كلف الأمر.

ويقول الناس إلى علي فيمتنع ثم يعاودون فيمتنع وهكذا إلى أن يشتد عليهم الوضع وييأسون من حل هذه المشاكل فيتجهون إلى صاحبنا الأشتر ليقوم هو بحلها من بينهم ثم يعاودون عليه الكره فماذا كان موقفه منها؟

نظر الأشتر في شؤون هؤلاء المرشحين فلم يجد بداً من الرجوع إلى علي عليه السلام، فالزبير وطلحة كانا كعثمان في كثير من الصفات التي اخذت عليه فلا يأمن أن يطمأن الناس إليهما ولا يأمن من قدرتهما على حل هذه الأزمات التي ستتولد من هذه وتعقبها، وحال سعد وابن عمر حالهما غير أن النفوس

كانت بعيدة عنهما بعض الشيء فكان حزباهما أضعف الأحزاب، وعلي عليه السلام بريء من المآخذ التي قيلت في حق عثمان، وهو صاحب الحق الأول وهو الوحيد الذي يستطيع أن يقف أمام التيارات، وهو في سابقته وايمانه ومفاداته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وخدماته الجلى للاسلام، ثم هو في تدبيره وحنكته وعلمه وشجاعته اظهر من جميع هؤلاء، وإذا بويع لا يحتمل الخلاف من أكثر الناس في أكثر البلدان، فهو بشوكته وحزمه وعدله بين الناس وحسن سياسته يستطيع أن يعيد للاسلام شوكته وقوته ومنعته ويتلافى ما حدث في هذه الواقعة إذن لا بد من الرجوع إليه لتتم له البيعة على كل حال.

ويقوم هو ويقوم الناس معه ويقبلون إلى الدار فيجثمون كربيضة الغنم والإمام في كل ذلك يأبى عليهم وهو يعلم عليه السلام كما صرح في حديث يذكره صاحب النهج بأنه سيستقبل صاحبها أمراً ذا وجوه والوان ولكن الناس يأبون أن يفارقوا الدار حتى «لقد وطىء الحسنان وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم» كما يعبر الإمام واظن هذا التشبيه هو أبلغ تشبيه للجماعة بعقليتها وشدة انقيادها وتأثرها بقائدها أي كان وسرعة تقلبها وتحولها واخيراً يلجأ الأشتر الإمام للبيعة فيجذب يده ويصفق عليها ويبايعه سائر الناس وبهذا يحل قسماً من تلكم المشكلة ويبقى قسمها الآخر وهو أن الإمام كان لا يرضى أن تتم بيعته في زاوية وإنما يريد أن تكون في مسجد رسول الله وأن يبايع هؤلاء المرشحون في المسجد فلننظر موقفه من القسم الثاني.

يخرج الإمام إلى المسجد ويخرج معه مالك وقوم مالك، ثم يقبل الصحابة إلا نفراً قليلاً فيجلسون ويقوم الإمام فيخطب في الناس ويشرح لون سياسته، ثم يقوم مالك الاشتر فيجدد البيعة ويلتفت إلى طلحة والزبير فيقول: قوما وبايعا ولكن هذين كانا قد تغيرت عزائمهما وفسدت نياتهما وغدرا به

كما يقول ابن أبي الحديد فتقاعسا قليلاً، فقال مالك. لطلحة وقد سل سيفه: قم يا ابن الصعبة فبايع فقام طلحة وهو يجر رجليه جراً حتى بايع ثم اتجه إلى الزبير وقال قم وبايع يا زبير والله لا ينازع أحد إلا وضربت قرطه بالسيف فقام وبايع، ومن هنا أثر عن الزبير انه قال بايعت واللج على قفي أي قفاي وهي لغة هذليه واللج سيف لمالك الأشتر.

وبماذا نعلل تلكأ هذين عن البيعة بعد أن بايعا طوعاً كما يقول المؤرخون.

قد تكون العلة في ذلك هو ما كانا يتصوران من أن الأمر لا يتم له وقد لمحا بادرة التمام في لج مالك، وقد تكون ما تذكرا من خشونة علي عليه السلام في ذات الله وأنه لا يشبع رغباتهما كما يريدان، ورغبة الزبير في ولاية الكوفة وطلحة في البصرة أو اليمن، وقد تكون ما لمحا من رغبة الإمام في مالك واحتمال أن يقدمه عليهما نظراً لوثوقه من اخلاصه وإيمانه وهذه القضية التي يرويها ابن أبي الحديد قد تكون دالة على بعض ما تصورناه وهي ان طلحة والزبير ارسلا محمد بن طلحة إلى الإمام عليه السلام وقالا له فيما قالا: قل للإمام: يا أبا الحسن لقد قال فيك رأينا وخاب ظننا اصلحنا لك الأمر ووطدنا لك الأمرة واجلبنا على عثمان حتى قتل فلما طلبك الناس لأمرهم جئناك واسرعنا إليك وبايعناك وقدنا إليك اعناق العرب - إلى أن قالا - حتى إذا ملكت عنانك استبددت برأيك عنا ورفضتنا رفض التريكة وإذللتنا اذلالة الإماء وملكت أمرك الاشتر، فهي - كما ترون - تصرح بان سبب انصراف هذين عن الإمام كان يعود لعاملين خيبة الآمال وتقديمه للاشتر، كما انها تصرح بامرين اخرين كانا محلاً لاختلاف الاقوال والمذاهب. الأول قتل عثمان وجريرته تقع على عاتقيهما لأنهما كما استظهرنا سابقاً كانا من أهم العوامل في ذلك، فهما اللذان أجلبا وهما اللذان سببا القتل كما يصرح

الحديث. وثانيهما اقبالهما على البيعة ومسارعتهما لها لا كما يظن بعض المؤرخين من أنهما أجبرا على البيعة، نعم أجبروا ولكن بعد أن بايعا طائعين.

ويبقى الاشتر في المسجد ينتظر بقية المرشحين ليطمأن من حل بقية المشكلة، وهو قابض على لجّه اللماع، ويأتي ابن عمر ويقبل على الإمام ولكنه يأبى أن يبايع فيدور بينه وبين الإمام حديث طويل يختمه بما يغضب الإمام، فيقوم الأشتر ويقول: يا أمير المؤمنين إن هذا قد أمن سوطك وسيفك فدعني اضرب عنقه، ولكن الإمام يأبى عليه ذلك ويأبى أن تغتصب بيعته اغتصاباً فيأمر بتخلية سبيله ولعل نظرة مالك في ذلك كانت نظرة ارهابية لا يقصد من ورائها غير تأديب الحاضرين، ولكن نظرة الإمام كانت أعمق من ذلك إذ أخلى سبيله، خصوصاً والعقلية الجمعية بعد لما تزل مسيطرة على هذه الطوائف من المبايعين وما يؤمن الإمام من انتفاضهم عليه لو ترك الأمر لمالك، وعبد الله هو ابن عمر الذي كانت تؤخذ سنة أبيه في جملة شروط البيعة على الخليفة.

ويوتى بسعد فيأمر الإمام باطلاق سراحه بعد أن يطمأن إلى أنه لا تصدر منه أية مخالفة، ثم يؤتى ببعض المسلمين ومالك واقف بين يدي الإمام وبين يديه لجِّه القهار وبهذا يوفق مالك إلى المشاركة في حل هذه المشكلة من أكثر اطرافها، وهذا في اعتقادنا اجمل ما يتصور من الحل وإلا فماذا ترون لو بويع غير الإمام أكان يستقيم له أمر البلاد ما عدا الشام، ثم أكان يستقيم له أمر هذه اللمة المجتمعة على قتل عثمان قد يكون ذلك وان كنت لا أعتقده. اما موقفه من بقية الأزمات التي حدثت من هذه الأزمة فذلك ما سننظره في الأحاديث الأتية.

- ٦ -

وهذا الحل الذي انتهى إليه الأشتر في موقفه من تلكم الأزمة وان كان هو الحل الموفق المتعين كما قلنا، ولكن ليس معنى ذلك أنه استطاع أن يميت العواطف في نفوسهم ويذهب عنها جميع الميول التي كانت تساورهم منذ حادثة الشورى، وكيف تذهب وكيف تموت وقد ضاعفتها هذه الحوادث تأزماً وشدة وعززتها بعواطف أخر كنا قد لمسناها في حديث طلحة والزبير المتقدم، وهي ـ كما قد رأينا ـ كانت قد نشأت من تدخل مالك في شؤون الإمام وتقبل الإمام لذلك نظراً لوثوقه منه فكان من الطبيعي أن يستجيب طلحة والزبير لعواطفهما فينكثا البيعة ما داما لا يرتبطان بمبدأ ديني وثيق يستطيع أن يقف لتلكم العواطف بالمرصاد، وكان من الطبيعي أن تنظم إليهما عائشة ما دامت تشاركهما في بعض الميول وما دامت قد انفردت بعواطف نحو الإمام ربما تكون ناشئة من مقام علي عليه السلام من النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما صرحت في حديث طويل ومن رغبتها في خلافة قريبها طلحة، ومن علمها بأن علياً عليه السلام لا يقيم لغير النظم الإسلامية في توزيع الأموال وزناً مهما كلف الأمر.

ولكن طلحة والزبير لم ينكثا البيعة إلا بعد أن خرجا من المدينة وإلا لكان موقف اللج منهما موقفاً جباراً يحول بينهم وبين ما لهم من رغبات وأطماع، وعائشة نفسها لم تكن لتسلم من لج مالك المنطقي ولمنطق مالك لج هو أمضى من جميع السيوف وأفتك من جميع السيوف.

بعث إلى عائشة ـ وهو بالمدينة ـ كتاباً له جلجلة مطمئنة ـ إن صحّ هذا التعبير ـ توقع في نفسها الرعب والخوف وكأنه يعلم بأن لصوته دوياً يتجاوز الأسماع إلى القلوب فيعبث بها كيفما شاء.

بعث إليها ـ أما بعد فإنكِ ظعينة رسول الله ﷺ وقد أمرك أن تقرِّي في بيتكِ، فإن فعلتِ هو خير لكِ، فإن أبيتِ إلا أن تأخذي منسأتكِ ـ وتلقي جلبابك وتبدي للناس شعيراتك قاتلتك حتى أردّك إلى بيتكِ، والموضع الذي يرضاه لكِ ربّكِ ـ وفي قوله قاتلتك همسة من همسات البطولة في نفس هذا القائد الصوال تبرز بهذ اللغة الهادئة لتقوم بتأثيرها على النفوس ـ ولكن عائشة كانت قد قويت شوكتها ببني أمية وبطلحة والزبير وبأوباش من العرب وبستمئة ألف درهم وستمئة من الإبل كان قد أمدهم بها أبو يعلى بن أمية، فلم تضطرب كثيراً لهذا الكتاب وان كان في جوابها ما يدلّ على شيء من الاضطراب فهي تقول فيه [وقد جاء كتابك وفهمت ما فيه] إلى أن تقول [وسيكفينك الله].

ثم ماذا؟

أَسكَتَ الأشتر بعد هذا الكتاب ـ لا.

إنه أراد أن يكون المحيط بحل هذه المشاكل من جميع أطرافها فساهم في حرب البصرة مساهمة كبيرة كان لها الأثر المحمود في تلكم الواقعة.

يخرج الإمام من المدينة ومعه العدة والعدد من المهاجرين والأنصار، وهو يقصد بذلك البصرة، وقيل الشام، ولكنه يخبر عن مسير جيش عائشة الى البصرة، فيسارع إليها ليدخل قبلها، غير أن عائشة تسرع السير فتدخل قبل أن يدخل الإمام، وتعبث كيف تشاء بواليها من قبله، ويأتي الإمام الخبر وهو بذي قار فيلتجأ لاستنفار الناس لحرب هؤلاء ويبعث ابن عباس إلى الكوفة، والكوفة هي بلد الأشتر، وعليها أبو موسى من قبل الإمام، وكان من قبل والياً من قبل عمر، ثم من قبل عثمان، فكان أهل الكوفة يطمأنون إليه ويركنون لما يقول، وهو كما نعلم من حاله من جملة من ينتمي الى حزب ابن عمر وابن عمر كان قد اعتزل البيعة كما رأيتم فيما تقدم،

والإمام عليه السلام لم تكن من رغبته أن يظلّ والياً على الكوفة لولا أنه كان يرى المصلحة في ذلك، ولولا أن يرغب الأشتر في إبقائه هناك.

ويُقبل ابن عباس على الناس في الكوفة فيدعوهم الى نصرة الإمام، ولكن الأشعري يقوم فيخطب هناك ويقول فيما يقول:

أيّها الناس إن أصحاب رسول الله صحبوه في مواطن كثيرة فهم أعلم بالله ممن يصحبه، وإن لكم عليَّ حقاً وأنا مؤدّيه إليكم، أمري أن لا تستخفّوا بسلطان الله وان لا تجترؤا أن تأخذوا كل من تقدم عليكم من أهل المدينة في هذا الأمر فتردوه إلى المدينة حتى تجتمع الأمة على إمام ترتضي به، أنها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب فكونوا جرثومة من جراثيم العرب اغمدوا سيوفكم وانصلوا اسنتكم واقطعوا اوتار قسيكم حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة].

وهي خطبة فنية جداً خاطبت عقول المجتمع من وراء نقطة الضعف فيهم، فكان من الضروري أن يستجيب لها الناس، وماذا في تلكم الخطبة نصائح يبثها شيخ كبير كان قد ارتضاه عمر بلهجته العاطفية الرقيقة التي كان ملؤها الرأفة والرحمة بهم والاهتمام بشؤونهم ومن ذا يسمع نصيحة تجنبه من الوقوع في المآزق الحرجة فلا يستجيب.

وبهذا منع الاشعري الناس عن الجهاد فلم يكن ليستطيع ابن عباس ـ على ما في لسانه من ذلاقة ـ ان يؤثر على هؤلاء ثم لم يكن ليستطيع أن يؤثر عمار على أن معه الإمام الحسن عليه السلام وعلى أنهما كلما الناس بالوان من الحديث الأخاذ.

واخيراً يسمع الإمام عليه السلام بتفصيل الحادثة فينتدب الأشتر الذي رغب في ابقاء الأشعري على الكوفة ليقوم بهذه المهمة، ويقبل الاشتر على الكوفة ـ وهو يجد السير ـ ويدخل الكوفة وأبو موسى الأشعري جالس على

المنبر يخطب الناس ويخذلهم عن الإمام والناس مقبلون عليه خصوصاً وكتب عائشة كانت قد سبقت الأشتر فساعدت حديث الأشعري على استجلاب عواطف الناس.

وماذا يصنع الأشتر وهل يكون أشد ذلاقة من الإمام الحسن عليه السلام حتى يستطيع التأثير، انه نظر أن منطق اللسان لا يؤثر على هذه الجماهير فاستعمل منطق السنان وقصد من حينه القصر فضرب الغلمان واخرجهم منه فخرجوا يشتدون إلى أبي موسى، وأبو موسى يكلم الناس والإمام الحسن عليه السلام يزجره بقوله: اعتزل عملنا وتنح عن منبرنا لا أم لك، ويدخلون عليه وهم في ارتباكة شديدة ينادون أيها الأمير هذا الأشتر قد جاء فدخل القصر فضربنا واخرجنا، ودخوله القصر خطة حكيمة سلكها القائد الجبار ليوقع الرعب في نفوس الجميع.

ويقبل أبو موسى على القصر فيستقبله الأشتر بقوله: أخرج من قصرنا لا أم لك أخرج الله نفسك فوالله إنك لمن المنافقين قديماً، ويقول أبو موسى: أجلني هذه العشية ويلمح الجماهير هذا الضعف منه فيهمون بانتهاب رحله، ولكن مالكاً يمنع الناس ويؤجله العشية وهنا تتجلى نفسية القائد الكريم الذي يعف بعد الظفر والمقدرة.

ويخرج الأشتر من الكوفة ومعه جيش جرار تبلغ عدته إثني عشر ألفاً وواحداً كما اخبر الإمام قبل مقدم الجيش، وهنا نعرف أثر مالك على أهل الكوفة الذي عرف نفسياتهم فقابلهم بعمل بسيط كان عندهم أبلغ من ألف خطاب.

ويسير مالك بجيشه الجرار ويلتحق بالإمام فيساهم ذلك الجيش في حرب الجمل ويساهم مالك معه وهو يقوده إلى حيث النضال والجلاد وحيث ينتظر النصر مواقف الأبطال من أولئك المغاوير.

ويقف في ذلك اليوم صاحبنا الأشتر موقفاً يذهل العقول، فهو في آرائه

الصائبة وهو في قيادته الحازمة وهو في بسالته الشديدة، يكاد أن يكون الوحيد في حزب الإمام بعد السادة الأشاوس من أولاد هاشم.

وتأريخ حادثة الجمل يسجل لنا مواقفه العظيمة في صفحاته الخالدة التي لا تكاد تخلو كل واحدة منها عن ذكر موقف مشرف تطرب له النفوس الكريمة، وسنعرض الآن لبعضها في هذا الحديث.

يبدأ القتال ويتحفز الأسد للوثوب فيخرج من بين جيوش أهل العراق رجل يملأ فضاء المعركة بصوته الرنان: يا معشر فتيان قريش أحذركم الرجلين العابدين جندب بن زهير والأشتر فلا تقوموا لأسنتهما ثم يرتفع مرة ثانية ليعّرف هذين الرجلين للناس: أما جندب ابن زهير فرجل ربعه يجر درعه حتى يعفو أثره، واما الأشتر فلأنيابه قعقعة في الحرب.

والتأريخ لا يحدثنا عن هذا المنادي بقليل ولا كثير ولكن الذي نعرفه من أمره انه كان كثير العطف على فتيان قريش ـ وهم الأسد الضبارمة ـ فهو يريد أن يجنبهم مبارزة هذين ليسلموا من سيوفهما وأسنتهما، ولكن بعض فتيانهم كان يأبى إلا أن يبارز الأشتر هذا محمد بن طلحة ـ كما يحدث صاحب سفينة البحار ـ يقبل على خطام الجمل فيقبله ويخاطب عائشة: فما تأمريني يا أمه، وتجيبه عاشئة بأنني آمرك أن تكون خير بني آدم، فيترك الخطام ويخرج للميدان يطلب المبارزة ويأتيه المعكبر بن حدير فيقتله ويعود إلى الخطام يقبله وقد انغمر في لجة من نشوة الظفر ثم يطلب المبارزة ويقبل عليه مالك ولأنيابه قعقعة، فينظر طلحة ذلك فلا يطيق الصبر على ولده ويقبل عليه فيقول: ارجع يا بني عن هذا الأسد الضاري ثم يتلو عليه أية من القرآن الكريم ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾. ولكن الشاب القرشي محمد تأخذه العزة في الإثم وتثور فيه غريزة حب الظهور فتسوقه إلى هذا الأسد ويتصاولان في الميدان فيسبق رمح الأسد الشيخ إلى هذا فينهزم من بين يديه ويتبعه الرمح

ويصل إلى كتفيه فيقع الشاب على وجهه وينزل الأشتر ليقتله فيذكره بالقرآن ويتلو عليه حماميم ولعله يريد أن يشير بذلك إلى شعار رسول الله ﷺ «حم تنصرون» في أيام الحروب فيكف الشيخ عن الشاب احتراماً للرسول ولحاميم، ويقوم عنه ويركبه الفرس ويرسله إلى أبيه، ولكن ضربة الأسد كانت قد سبقت العذل كما يقول القدماء فلم تترك له مجالاً للمرح في اجواء الحياة ويموت في يومه الثاني فيقول الأشتر:

يذكرني حماميم والسيف مصلت ... فهلا تلا حماميم قبل التقدم
هتكت له بالرمح جيب قميصه ... فخر صريعاً لليدين وللفم
على غير شيء غير أن ليس تابعاً ... علياً ومن لا يتبع الحق يندم

وهذه أبيات نرجوا أن لا يفوتنا الوقوف عندها في حديثنا عن ثقافته، لننظر جمالها من الوجهة الفنية فهي آية من آيات الفن.

ويبارز الأشتر في ذلك اليوم كعب بن سورة الأزدي فيقتله، ثم يبارز ابن جفير الأزدي وهو من فرسان جيش أهل البصرة، وقد برز هذا الشجاع مدلاً بنفسه في الميدان وهو يقول:

قد وقع الأمر بما لم يحذر ... والنبل يأخذن وراء العسكر
وأمنا في خدرها المشمر

ويرد الأشتر عليه بزمجرته:

اسمع ولا تعجل جواب الأشتر ... واقرب تلاقي كأس موت احمر
ينسيك ذكر الجمل المشمر

ثم يبدو اليه فيقتله ويقتل عمير الغنوي وعبد الله بن عتاب بن اسيد، ويضل الفارس وحده يصول في الميدان ويجول وهو يردد:

نحن بنو الموت به غذينا

وتضطرم الحرب وتشتد، ثم تضطرم وتشتد ومالك يهدر كالفنيق بين الصفّين وجمل عائشة واقف والايدي تتسابق إلى خطامه فتتقطع، وإذا بصوت الإمام: يا مالك يا عمار ويا فلان ـ يدعو حماة أصحابه ـ إلى الجمل إلى الجمل اعقروا الجمل انه شيطان، ويسرع مالك إلى الجمل، وقد قبض على زمامه عبد الله بن الزبير فيلقي بنفسه عليه ـ وكانت عادته أنه يطوي للحرب وكان طاويا ثلاثة أيام ـ ثم يتصارعان فيصرعه الشيخ ويجثم على صدره وصوت عبد الله يرتفع في الأجواء:

اقتلـــونـــي ومـــالكـــا اقتلـــوا مـــالكـــاً معـــي

فيهب الاشتر عن فريسته إلى فرسه وقد اجتمع الناس عليهما ويركب الفرس ويستقبل الناس فينكشفون عنه. وقد حدث ابن الزبير بعد تلك الواقعة ـ على ما يروي صاحب العقد ـ قال: التقيت بالأشتر يوم الجمل فما ضربته ضربة حتى ضربني خمساً أو ستاً ثم أخذ برجلي فالقاني بالخندق وقال والله لولا قرابتك من رسول الله ما اجتمع منك عضو إلى آخر.

وتسأل عائشة عن صاحب عبد الله فيقال لها: الأشتر، فتصيح وا ثكل أسماء ويأتيها المبشر بسلامته فتدفع له أربعة آلاف درهم ويعقر الجمل فتنتهي الحرب وتسفر عن قتلى من الطرفين كثيرة. وتؤخذ عائشة إلى دار من ديار البصرة ويقبل عليها الناس ويكون من جملة المقبلين عمار ومالك ويدخل عمار ويدخل مالك فتسأل عائشة أبا اليقظان عن صاحبه ويجيب بأنه الأشتر فتذكر إذ ذاك ابن اختها عبد الله ويدور بينهما هذا الحديث.

عائشة ـ لمالك ـ: أنت فعلت بعبد الله ما فعلت؟

مالك ـ لعائشة ـ: نعم ولولا كوني شيخاً كبيراً وطاوياً لقتلته وأرحتُ المسلمين منه.

عائشة: أوما سمعت قول النبي ﷺ أن المسلم لا يقتل إلا من كفر بعد إيمان أو زنى بعد احصان أو قتل النفس التي حرم الله قتلها؟

مالك: ـ يا أمه ـ على أحد الثلاثة قاتلناه.

ثم ينشد في ذلك شعراً يشرح الواقعة:

أعائش لولا أنني كنت طاوياً	ثلاثاً لألفيت ابن اختك هالكا
غداة ينادي والرماح تنوشه	كوقع الصياصي اقتلوني ومالكا
فلم يعرفوه إذ دعاهم وغمه	خدب عليه في العجاجة باركا
فنجّاه مني شبعه وشبابه	واني شيخ لم اكن متماسكا
وقالت على أي الخصال صرعته	بقتل أتى أم ردةٍ لا أبا لكا
أم المحصن الزاني الذي حل قتله	فقلت لها: لا بد من بعض ذلكا

وفي هذه المحاورة طرافة نلمحها جيداً بجواب مالك: على أحد الثلاثة قاتلناه وبقوله في الشعر لا بد من بعض ذلكا. ففي ابهامها نكتة حلوة تدل على بلاغة نفسية عميقة يطرب لها اخواني البيانيون.

ثم في ابياته جمال فني سنلمسه في حديثنا عن ثقافته

قارئي العزيز، هذه بعض مواقف مالك في يوم الجمل أحببتُ أن اسجلها لتعرف موقفه من هذه الأزمة التي نشأت من ازمة البيعة السابقة وهي ـ كما رأيتم ـ جهاد متواصل في سبيل تحقيق مبدئه مع اخلاص شديد لرب ذلك المبدأ. ولعلنا نعود إلى بعضها الآخر في حديثنا عن بطولته.

- ٧ -

وتنتهي أزمة وتقبل أزمة. وتنتهي أزمة البصرة وتقبل أزمة الشام ويكون من نصيب مالك أن يساهم في رفعها بما أوتي من قوى كما ساهم في رفع الأولى وكان من جملة من وفق إلى رفعها. ولننظر الآن هذه المساهمة.

يدخل الإمام الكوفة ليتخذها عاصمةً له لأسباب قد يطول شرحها الآن. ويدخل معه مالك ويوزع الولاة على الامصار المطيعة فيكون من نصيب مالك الموصل ونصيبين ودار أو سنجار وآمد وهيت وعانات وما غلب عليه من أرض الجزيرة.

ولعل السر في اختياره هذه البلدان على الخصوص هو ما يعلمه من الحزم في مالك وحسن السياسة والقدرة على إدارة مثل هذه الامصار التي تتصل اتصالاً مباشراً بالبلدان التي يحكمها معاوية كحران والرقة والرها وقرقيسيا وما استطاع أن يتغلب عليه من أرض الجزيرة التي كانت تحت ولاية الضحاك بن قيس.

وأنتم تعلمون ما تحتاجه الشعوب المجاورة لارض العدو من لباقة وحسن إدارة ليستطيع أن يحول بينها وبين تسرب الدعاوة من أعدائه اليها. والتأريخ لا يحدثنا عن لون سياسته في هذه الولاية.

ولكن الذي نعلمه من حال الإمام انه لا يختار غير ذوي الكفاية من أصحابه. وكلماته في تحديد سياسة مالك كثيرة جداً عرضنا لبعضها سابقاً وسنعرض لبعضها الآخر في الأحاديث الآتية. وحسبنا الآن منها قوله فيه - إنه لا يخاف وهنه ولا سقطته - والتأريخ يحدثنا أنه استطاع بعد ولايته أن يؤلف منهم جيشاً جراراً لمضايقة غريمه الضحاك وهذا الانقياد إليه ربما يدلنا

على ما يقوله الإمام.

ويقبل على الضحاك بجيشه ويتخذ معه خطة المهاجمة وربما يقصد بذلك أن يشغلهم عنه في دارهم وأن يوقع الاضطراب في نفوسهم وأن يتملك قسماً من بلادهم يضيق بها رقعة ما يملكه معاوية ويوسع بها دولة الإمام ويستنجد الضحاك بأهل الرقة ـ وأهل الرقة عثمانيو المبدأ ـ ومع ذلك يضايقه الأشتر ويلتقي بالضحاك بمرج مرينا ـ وهي بين حران والرقة ـ ويبدأ القتال ثم يشتد. ولكن المساء يفصل بين الفريقين فيلوذ الضحاك بالفرار إلى حران ويتبعه الأشتر إليها.

غير أن معاوية يسمع بالخبر فينجد الضحاك بجيش عظيم ربما يضعف عن مقاومته جيشُ مالك، ويعلم مالك بقدومه بقيادة عبد الرحمن بن خالد فيكتب الكتائب ويستعد للقتال ثم يرفع صوته بالخطاب لهؤلاء المتحجبين عنه بالقلاع: ألا تنزلون أيها الثعالب الرواغة احتجزتم احتجاز الضباب، ولكنهم لا يجيبونه فينسحب عنهم إلى مقر اقامته من بين هذه البلدان الذي لا يحدث عنه التأريخ بقليل أو كثير.

ويظل مالك في ولايته مدة لم تطل كثيراً، فقد أرسل إليه الإمام ليكون ساعده القوي في حرب أهل الشام ويقبل مالك عليه والإمام يتأهب للخروج ويعد العدة. ولكن الإمام ـ كما نعلم من حاله ـ لا يحب أن يبدأ في القتال قبل أن تكون له الحجة البالغة على غريمه وقبل أن يكون في نجوة من لمزات اللامزين فهو مع يأسه من انقياد معاوية إليه يكتب كتاباً ويبحث عن رسول يبلغه إليه ومن ذا يكون.

يقترح جرير بن عبد الله عامل عثمان على ثغر همدان أن يكون هو الرسول لأنه أعلم بلغة معاوية وأدرى بالأساليب التي يستطيع أن يسلكها فيجذبه اليه فهو يمكنه أن يمنيه بولاية الشام ما دام يعمل بطاعة الله وهو يمكنه

أن يخوفه من فتكة الإمام فيجمع بين الخوف والرجاء.

وأهل الشام قومه واهل بلاده فهم اسرع ما يكونون إلى الانقياد إليه. ويشم مالك من حديثه رائحة التحزب إلى معاوية فيقول للإمام: لا تبعثه فوالله إني لأظن هواه هواهم.

غير أن الإمام كان أنفذ بصيرة من مالك حين أصر على إرساله وذلك إنه كان يعلم ـ حسبما ارى ـ أن معاوية لا يستجيب وعنده أهل الشام الذين رباهم بتلك التربية المقصودة التي كان يضرب فيها على وتر خاص، وما يدريك لو أرسل إليه غير هذا العثماني أكان يسلم من غائلته؟

أترى أن معاوية يستطيع الظفر بمالك أو نظراء مالك من اصحاب الإمام فيتركهم يمرحون في الأحياء ليشنوا عليه غارة شعواء مع الاومام معاوية ـ كما نعلم من حاله ـ لا يهمه أن يخرج على التقاليد العربية والاسلامية في الرسول، ما اظن ذلك.

وعبد الله من أهل الشام ومن عمال عثمان وممن كان هواه هو أهم فهو أولى بحمل هذه الرسالة التي يأمن الإمام من عدم نجاحها ثم يأمَن مِن حصول غرضه بها وهو إقامة الحجة على معاوية أمام المسلمين جمعاء وهو يحصل بهذا الرسول.

ويسير ابن جرير ويجدّ السير ويبلغ الشام بكتاب الإمام ويدور بينه وبين معاوية حديث لا يهمنا تسجيله الآن ويظل في الشام مدة كادت أن تُيئس الناس منه ويأتي بعدها بكتاب من معاوية ينذر فيه الإمام بالاستعداد للحرب ويجتمع الاشتر وابن جرير عند الإمام فيدور بينهم هذا الحديث.

الأشتر ـ للإمام ـ: أما والله يا أمير المؤمنين لو كنت ارسلتني إلى معاوية لكنت خيراً لك من هذا الذي ارخى من خناقه واقام حتى لم يدع باباً

يرجو روحه إلا فتحه أو يخاف غمه إلاّ سدّه.

ابن جرير ـ لمالك ـ: والله لو أتيتهم لقتلوك وقد زعموا أنك من قتلة عثمان، ثم شرع بخوفه بعمرو وذي الكلاع وحوشب ذي الظليم.

الأشتر: يا أخا بجيلة ما أنت بأهل أن تمشي فوق الأرض حياً إنما اتيتهم لتتخذ عندهم يداً بمسيرك إليهم ثم رجعت إلينا تهددنا بهم، وأنت والله منهم ولا أرى سعيك إلا لهم، ولئن أطاعني فيك أمير المؤمنين ليسحبنك وأشباهك في محبس لا تخرجون منه حتى تستبين هذه الأمور ويهلك الله الظالمين.

ومن هذا الحديث يمكننا أن نصدق فراسة مالك في جرير. فحديثه السابق ربما يدل على رغبته في معاوية واهتمامه بتهويل فتكه وفتك جيشه في أنصار علي. وقد استظهرنا سابقاً أن الإمام كان يعلم ذلك منه ومع ذلك فقد ارسله للغايات السياسية المتقدمة.

ويضطرب ابن جرير لإشارة مالك على الإمام فيخرج من الكوفة ثم يخرج معه رجال من قومه ويقصد إلى قرقيسيا من أعمال معاوية. ويبلغ الإمام خبره فيقصد إلى داره ويهدم بعضها ويحرقها، ثم يقصد إلى دار ثوير بن عامر فيهدم بعضها ويحرقها كل ذلك من أجل خيانته ونكوله عن مجاهدة اعداء الإمام. وربما يكون الإمام قد قصد مع ذلك ايقاف حدود الخيانة من بقية الناس.

ويتهيأ الإمام للخروج فيرسل على المهاجرين والأنصار ثم يرسل على الزعماء من أهل الكوفة ويقوم فيهم خطيباً ويقول فيما يقول: سيروا إلى اعداء السنن والقرآن سيروا إلى بقية الأحزاب وقتلة المهاجرين والأنصار. فيقوم في الأثناء رجل من فزارة يقال له الاربد ـ ولعله دسيسة من دسائس

معاوية ـ ويقول: أتريد أن تسيرنا إلى اخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك كما سرت بنا إلى اخواننا من أهل البصرة فقتلناهم. كلا. ها. الله اذن لا نفعل ذلك.

ويقوم مالك ولعله نظر أن هذه الكلمة قد يكون لها وقع في بعض النفوس التي تراودها نشوة حب السلامة فيتقاعدون عن الجهاد، وربما جهروا بامثالها فيشيع في المحفل هذا اللون من الحديث وقد ينتهي إلى شغب كثير وما يدريه لعل دسائس معاوية كانت قد ملأت ذلك المحفل وقد هيأت هي ذلك الجو الذي مهد للفزاري هذا الحديث.

إذن يجب عليه الآن أن يتدارك الوضع قبل أن يقع ما لا يحمد عقباه، ولكن كيف يتداركه؟ المقام يقتضي الشدة ليثير فيها غريزة الخوف في النفوس ويقتضي اللين ليثير فيها غريزة الخضوع والاستسلام لاوامر السلطان فليقم في المقامين وليقدم الشدة على اللين. فينادي من لهذا أيها الناس ويسمع الفزاري صوته فيستسلم للفرار ويقوم شؤبوب من الناس خلفه ويقبضون عليه في سوق البراذين فتختلف عليه الأيدي والأرجل وذيول السيوف إلى أن يموت ضحية للطيش والغرور والخيانة ويسأل الإمام عن قاتله فيقال له: همدان وشوبة من الناس، فيقول: قتيل عمية لا يدري من قتله ديته من بيت مال المسلمين.

وهذه الحادثة بالطبع أثرت على بعض النفوس فأماتت عواطفها في صدورها ولعل الشاعر التيمي يصور لنا بعض تأثيرها بقوله

أعــوذ بــربــي أن تكــون منيتــي	كمـا مـات فـي سـوق البـراذيـن اربـد
تعـاوره همـدان خفـق نعـالهـم	إذا رُفعـت عنـه يـدُ وضعـت يـد

ويبقى دور اللين فيقوم ويقول: يا أمير المؤمنين لا يهولنك ما سمعت

من مقالة هذا الشقي الخائن، إن جميع من ترى من الناس شيعتك وليسوا يرغبون بانفسهم عن نفسك ولا يحبون بقاءً بعدك، فإن شئت فسر بنا إلى عدوك والله لا ينجو من الموت من خافه ولا يعطي البقاء من احبه وما يعيش بالآمال إلاّ شقي وأنا لعلى بيّنة من ربنا ان نفساً لن تموت حتى يأتي اجلها فكيف لا نقاتل قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين وقد وثبت عصابة منهم على طائفة من المسلمين فاسخطوا الله واظلمت باعمالهم الأرض وباعوا اخلاقهم بعرض من الدنيا يسير.

وما أدري ما رأيكم بهذا اللون من الحديث. إنني اطرب كثيراً لهذا التبرع من مالك الذي تحدث به عن الناس فهم شيعته وهم محبوه وهم باذلوا انفهسم دونه وهم.. وهم.. مع إرسال هذه الحكم الجليلة التي استقاها حسبما اعتقد من معينها الفياض - علي عليه السلام - لا ينجو من الموت من خافه. لا يعطى البقاء من أحبه.. ما يعيش بالآمال إلا شقي.

وكأنه يريد أن يخاطب قلوب الناس بهذه الحكم فيقول: ما قيمة الحياة إذا كانت نتائجها ليست بيدك؟ فالموت والبقاء منوطان في الله، فما قيمة الآمال التي لا يعيش بها إلا الشقي من الناس؟

وما أدري أيصحُّ أن يسمع الناس هذه الحكم بهذا الاسلوب فلا ينصبغون بلونها ولا يتأثرون بها؟ ثم ايستطيع بعد هذا الكلام من تساور نفسه بعض الآمال أن يقوم فيرد على الإمام؟

أنا في ما أعتقد أن هذا الكلام قد قطع عن الإمام ألسناً عديدة كان يجابه بها لولا صدوره من مالك.

وقبل أن نتحول عن هذه الخطبة أحب أن نقف عند نقطتين منها:

الأولى: قوله فكيف لا نقاتل قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين...

الخ. فهي تدل على ثقافة نفسية عميقة وتأدب مع الإمام يبعث الاطمئنان إليه في جميع النفوس.

والثانية: قوله أنا لعلي بينة من ربنا فهي كلمة تدل على تغلغل الايمان في نفسية هذا البطل الفتاك.

وخطبة مالك هذه كانت قد فتحت الباب لكثير من الزعماء، فقاموا ونسجوا على منواله واخيراً يتفرق الناس عن الاستعداد للخروج إلى الشام.

ويبلغ الإمام أن معاوية خرج إلى صفين فيخرج ويخرج مالك معه ويخرج معهما الجيش الجرار وينتهي الإمام إلى (الرقة). والرقة ـ كما يقول المؤرخون ـ عثمانية المبدأ وقد كان هواها مع معاوية وعليها من قبله سماك بن مخرمة الأسدي. ويحاول الإمام أن يعبر على جسرها فيمتنعون ويخفون عنه السفن.

فيتركهم الإمام ويقصد إلى منبج للعبور على جسرها ولكنه يخلف عليهم مالكاً. وكأن مالكاً رأى أن في ترك الإمام له على الرقة سراً من الأسرار لا يعدو استعمال لون من الوان الشدة يضرب بها على أيديهم ليتسنى للإمام العبور من أقرب مكان، فينادي فيهم: إني أُقسم بالله لئن مضى أمير المؤمنين ولم تجسروا عند مدينتكم حتى يعبر منها لأجردنّ فيكم السيف ولأقتلنّ مقاتلتكم ولأخربنّ أرضكم ولآخذنّ أموالكم. ويسمع هؤلاء نداءه فيرتبك عليهم الأمر.

ويتضاعف عندهم الارتباك عندما يتصورون أنه مالك، فيقول بعضهم لبعض: إن الأشتر يفي بما يقول وإن علياً إنما خلفه علينا ليأتينا منه الشر. وأخيراً يقر رأيهم الإستسلام فيستسلمون ويبعثون إليه أنا ناصبون لكم جسراً فأقبلوا، ويرسل الأشتر على الإمام فيقبل وينصبون لهم الجسر فيعبرون

ويتخلف مالك ومعه ثلاثة آلاف ويعبر بعد أن يعبر الجميع فتسقط قلنسوتان لعبد الرحمن بن الحسين وعبد الله بن الحجاج فيتفألان بالشهادة.

وبعد أن ينهي العبور يبعث الإمام على زياد بن النضر وشريح بن هاني ويرسلهما إلى معاوية طليعة لجيشه باثني عشر ألفاً. ويسير هذان ويلتقيان بأبي الأعور السلمي بسور الروم في جند من الشام فيدعوانه إلى الدخول في طاعة الإمام ويأبى فيرسل هذان إلى الإمام ويعلمانه بالخبر.

فلا يجد الإمام بداً من إرسال نجدة إليهما وقائد يستطيع أن يدير الحركة بلباقة. ومَن ذا يكون لها غير تلميذه الأشتر فليدعه إذن وليقل له فيما يقول: يا مالك إن زياداً وشريحاً أرسلا إليّ يعلماني أنهما لقيا أبا الأعور في جند من أهل الشام بسور الروم، ونبأني الرسول أنه تركهما متواقفين فالنجاء إلى أصحابك النجاء. فإذا أتيتهم فأنت الأمير عليهم وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدؤك، ولا يجرمنك شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والاعذار إليهم مرة بعد مرة، واجعل على ميمنتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً وقف في القلب ولا تدنو منهم دنو من يريد أن ينشب الحرب ولا تتباعد منهم تباعد من يهاب البأس حتى أُقدم عليك فإني حثيث السير إليك إن شاء الله.

ويقبل مالك ويستمع لهذه الدروس الثمينة ويتلقاها بوداعة واطمئنان كما اعتاد أن يتلقى نظائرها عن استاذه من الدروس التي خلقت منه هذا القائد الجبار الذي لم يراوده الفشل في حملة من الحملات. وكم كنت أود لو تساعدني هذه الأزمة الشديدة لأقف من هذه الدروس موقف من يريد أن يدرسها من الوجهة النفسية ليعرف مقدار تأثيرها على النفوس.

ويسير مالك وقد تأبط هذه الباقة من النصائح الثمينة وتأبط حزمه وعزمه وفروسيته وقوة إرادته ثم تأبط هذا الكتاب الخالد من الإمام إلى هذين القائدين: أما بعد فإني أمرت عليكما مالكاً فاسمعا له وأطيعا أمره فإنه ممن

لا يخاف وهنه ولا سقطته ولا بطؤه عما الاسراع إليه احزم ولا الاسراع إلى ما البطؤ عنه أمثل.

وهذا الكتاب على إيجازه المعجز مثل لنا صورة القائد المحنك. الذي يستطيع أن يضع الأمور في مواضعها فلا يسرع في موضع الإبطاء ولا يبطىء في موضع الإسراع، ثم لا يخاف وهنه، ولا تخشى سقطته. وماذا يمكن أن يقال في تحديد القائد العظيم أكثر من هذا؟ ومنها تستطيع أن تعرف قيمة مالك الأشتر الذي صورته لك هذه الآيات.

ويلتقي بهما فيكون أميراً عليهما ويجري على الخطة التي رسمها الإمام له. فلا يبتعد ولا يقترب ولا يطمع ولا يُيئس. ولكن أبا الأعور كان لا يطيق هذه المضايقة فيخرج عليهم في الليل ويقتتلون، ثم ينصرف أهل الشام ويتبعهم هاشم بن عتبة في خيل ورجال. وأخيراً يخرج عليهم الأشتر وهو ينادي أروني أبا الأعور أروني أبا الأعور.

ولكن أبا الأعور يختفي عنه فلا يراه ويرسل إليه الأشتر سنان بن مالك الشاب النخعي ليدعوه إلى المبارزة، ويتبادر إلى ذهن الشاب الفتى أنه يطلب إليه أن يبارزه هو لا مالك فيقول لمالك:

أدعوه لمبارزتي؟

مالك: ولو أمرتك بمبارزته فعلت؟

الشاب ـ وقد بدأت تتجلى من حديثه صفحة من صفحات البطولة الجبارة ـ: نعم والله الذي لا إله إلا هو، لو أمرتني أن اعترض صفهم بسيفي فعلت.

مالك: يا ابن أخي أطال الله بقاءك قد والله ازددت فيك رغبة. لا، ما أمرتك بمبارزته إنما أمرتك أن تدعوه إلى مبارزتي لأنه لا يبارز إلا ذوي

الكفاءة والأسنان والشرف وأنت بحمد الله من أهل الكفاءة والشرف، ولكنك حديث السن وليس يبارز الأحداث فاذهب فادعه لمبارزتي.

ويذهب الشاب فيدعوه للمبارزة. فيتذكر أبو الأعور أنه مالك فيحجم عنه ويعتريه شيء من الوجوم، ثم يفكر في سبيل يخلص به منه فلا يجد غير هذا الجواب الذي يدل على بلبلته النفسية:

إن خفة الأشتر وسوء رأيه هو الذي دعاه إلى اجلاء عمال عثمان من العراق، وافترائه عليه إلى أن سار إليه إلى داره فقتله فيمن قتل، لا حاجة لي بمبارزته.

ويطلب الشاب الجواب فلا يجد غير هذا، فيرجع إلى مالك وقد يأس منه. وما أدري ما يمنع أبا الأعور مع أنه يستطيع ـ لو كان له كفوا ـ أن يبارزه فيقتله ليثأر لعثمان منه ما دام هو قاتله، ولكنه العذر للتخلص من المبارزة ليس إلا.

وهنا لا يجد الأشتر غير موافقته كما أمر الإمام. ويقبل الليل فينسحب أبو الأعور وهو متستر في ثياب الظلام.

- ٨ -

ويصبح الصباح، فيلتحق جيش الإمام بجيش مالك ويسيران معاً إلى صفين وكان قد سبق إليها معاوية بجيش الشام وسبق إلى الماء فوضع عليه أبا الأعور السلمي ومعه جيش عظيم وينزل جيش الإمام على غير ماء فتبدأ المصادمات.

على الماء

فيقبل الأشتر ومعه قسم من مقدمة الجيش إلى الفرات فيصطدم بأبي الأعور، وتدور معركة شديدة تنتهي بانسحاب أبي الأعور عن الماء. وينظر معاوية ذلك فينهض بجميع أهل الشام ويقبل إلى الاشتر فيتراجع الأشتر عن الماء.

ويظل جيش الإمام يعاني العطش يومه ذاك فيراسل الإمام معاوية حول هذه القضية لعل الأمر ينتهي بسلم. ويشير جماعة على معاوية أن يستمر بمنعهم عن الماء لعلهم يرجعون عنه.

ويكثر الضجيج من أهل العراق، وتثور الحمية في الأشعث فيقبل على الإمام ويطلب منه أن يمده بمالك الأشتر، ويقف مالك فينادي في الناس: من كان يريد الموت فميعاده الصبح فإني ناهض إلى الماء ويأتيه في ليلته تلك اثنا عشر الفاً فيشد عليه سلاحه وهو يقول:

ميعادنا اليوم بياض الصبح هل يصلح الزاد بغير ملح؟

نعم أيها البطل المغوار لا يصلح الزاد بغير ملح وملح البطولة جولة في

ميادين الكفاح يصول بها الفارس الفتاك ـ تأملوا قوله: هل يصلح الزاد بغير ملح ـ فهو مثل عربي جليل لعله انتشر من هذا البيت الجميل.

ثم يعطي الراية للحارث بن همام النخعي ويشجعه على الثبات في الميدان، ويهم أن يثير في نفسه غريزة الاحتفاظ بالكرامة وغريزة حب الظهور فيقول: لولا أني اعلم أنك تصبر على الموت لأخذت لوائي منك ولم أحبك بكرامتي.

ويسر همام بهذا التشجيع ويتطاول قليلاً وهو يقول: والله لأسرنك أو لأموتن ثم يسير ويبدأ في الحداء:

يا اشتر الخير ويا خير النخع	وصاحب النصر إذا عم الفزع
وكاشف الأمر إذا الأمر وقع	ما أنت بالحرب العوان بالجذع
قد جزع القوم وعموا بالجزع	وجرعوا الغيظ وغصوا بالجرع
ان تسقنا الماء فما هي بالبدع	أو تعطش اليوم فجد يقتطع

ما شئت خذ منها وما شئت فدع

ويقف مالك فيقف الجيش ويلقي عليهم دروساً في الفروسية تدل على تعمقه في هذا الفن مع إرسال شيء من كلمات التشجيع يقول: فدتكم نفسي، شدوا شدة المحرج الراجي الفرج، فإذا نالتكم الرماح فالتووا فيها، وإذا عضتكم السيوف فليعض الرجل على نواجذه فإنه أشد لشؤون الرأس، ثم استقبلوا القوم بهاماتكم.

وكان الأشتر إذ ذاك راكباً على فرس له محذوف أدهم كأنه حلك الغراب ـ كما يقولون ـ يبارز الاقران ويصاول الاسود وهو يهدر بأراجيز فنية توقع الرعب في نفوس الأبطال فهو يقول:

لاوردن خيلي الفراتا	شعث النواصي أو يقال ماتا

وهذا البيت يصوّر لك كيف يجب أن تكون حياة البطل. فهو قصة حياة تتلخص بكلمات: اما ان يحصل على غايته أو يموت.

أو يقول في ترجمة نفسه لمبارِزِه الشامي الاجلح بن منصور الكندي:

بليـت بـالأشتـر ذاك المـذحجـي   بفـارس فـي حلـق مـدجـج
كـالليـث ليـث الغـابـة المهيـج   إذاً دعـاه القـرن لـم يعـرج

وقد بلي هذا المسكين به كما اخبر ـ فقد صدق قوله فعله ـ فقتله.

أو يقول لابراهيم بن الوضاح منازله في المعركة ومخاطبه بقوله:

هـل لـك يـا أشتـر فـي بـرازي   بـراز ذي غشـم وذي اعتـزاز
مقـاوم لقـرنـه لـزاز

يقول:

نعـم نعـم اطلبـه شهيـدا   معـي حسـام يقصـم الحـديـدا
يتـرك هـامـات العـدا حصيـدا

ويأبى سيفه إلا أن تكون هامة الوضاح من بعض ذلك الحصيد.

أو يقول لرياح بن عتيك الغساني الذي طلب مالكاً للبراز بقوله:

انـي زعيـم مـالـك بضـربـي   بـذي غـراريـن جميـع القلـب
عبـل الـذراعيـن شـديـد الصلـب

والذي اجابه بوداعة البطل الهادىء الذي لا يأبه لأمثاله في الميدان يقول:

رويـد لا تجـزع مـن جـلادي   جـلاد شخـص جـامـع الفـؤاد
يجيـب فـي الـروع دعـا المنـادي   يشـد بـالسيـف علـى الأعـادي

وتسرع ضربة مالك إلى رأس الغساني فلا تدع المجال للجزع في ذلك الفؤاد.

واخيراً يشرف على الماء وقد قتل عدة من القروم فينسحب جيش الشام ويرتوي مالك وأهل العراق من دماء الأعداء ثم من نهلة الفرات.

وهنا ما ترى الإمام يصنع بمعاوية؟ أتراه يقابله بالمثل فيمنعه عن الماء؟ لا. إنه ترك الماء للجميع ينتهلون منه على حد سواء.

وتدور بعد هذه المعارك معارك طفيفة يكون مالك هو المجلي في جلاد الفرسان. ثم يحتال معاوية في امر الماء بحيلة فيها شيء من الطرافة لم تكن لتخفى على الإمام ـ وإن خفيت على جل أهل العراق ـ وذلك أنه كتب على سهم ورماه نحو جيش الإمام بعنوان أنه مخبر سري على معاوية كتب عليه بأن معاوية عزم على أن يفجر عليكم الفرات ليغرقكم. ويخال أهل العراق بأن المخبر صادق ـ وهم في العراق يشاهدون لوعة الفيضان ـ فيحاولون الفرار.

وينادي الإمام: إنها خديعة إنها خديعة، فلم يجيبوه ونهض في آخرهم وسار. وسار معاوية إلى معسكر الإمام ونزل على الفرات. ويدعو الإمام مالكاً والأشعث ويقول: ألم أقل لكما أنها حيلة ثم يقومان بالعودة إلى الماء ومعهما أبطال من أهل العراق ويزيحون معاوية وأهل الشام ويعود الإمام إلى مركزه في معسكره.

ثم تدور مناوشات طفيفة بين الطرفين ويبرز في الميدان في بعضها رجل شامي طويل عرف بالشجاعة والإقدام ـ يدعى بسهم بن أبي العيزار ـ فيدعو الناس إلى المبارزة ويحجم عن منازلته في الميدان جميع أهل العراق فيظل وحده يزمجر ويسوء مالك أسد العراق ذلك فيبرز إليه بنفسه ـ وقد

اشفق عليه الناس ـ ويلتقيان فيتصاولان ويتجاولان ـ والناس ينظرون إليهما واجمين ـ ثم يسرع كبش العراق وفارسه فينشب في غريمه سيفه الصارم ويعود وقد اسلم فحل الشام إلى معانقة الموت.

ويقبل ذو الحجة فيترك القتال للاشهر الحرم وتدور مفاوضات بين الإمام ومعاوية رجاء الصلح ولكنها لا تنتج شيئاً لأن معاوية كان قد قوي أمله بالسلطان وتنتهي فيبدأ القتال:

بعد الهدنة

ويعبىء الإمام جيوشه ويكون الاشتر قائد الرجالة من أهل الكوفة ثم يلقي عليهم نصائح ودروساً، ويشرع الجيش في القتال فيخرج في اليوم الأول أهل العراق وهم بقيادة الأشتر ثم يخرج بعد أيام قائداً أيضاً ويلتقي في كل ذلك بجيش أهل الشام فيقتتلون قتالاً شديداً.

ويفصل الليل بين الطرفين فينفض الجلاد عن قتل جماعة كبيرة من زعماء أهل الشام جزع من مقتلهم معاوية فقام يدعوا: اللهم أظفرني بالاشتر النخعي ثم يستعد الإمام للهجوم بجيشه عامة ويستعد أهل الشام، ويلتقي الجيشان ويقتتلون فتنهزم ميمنة أهل العراق ويلاحقها أهل الشام فيمر المنهزمون على الإمام فيدعوهم ويستنهضهم ولكنهم لا يجيبون فينادي مالك الأشتر.

مالك: لبيك يا أمير المؤمنين.

الإمام: أئت القوم فقل لهم أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم.

ويبلغ الأشتر الناس الفارين بكلمات الإمام ثم يقول ـ وقد رفع

صوته ـ: أيها الناس أنا مالك بن الحارث ـ ويظن أنهم لا يعرفونه بهذا الاسم ـ فيقول: أيها الناس أنا الأشتر أنا الأشتر إلي أيها الناس فتقبل عليه طائفة ثم يقول ـ وقد ثارت في نفسه نوازع الإيمان والجهاد ـ: يا أيها الناس غضوا الأبصار وعضوا على النواجذ واستقبلوا القوم بهاماتكم ثم شدوا شدة قوم موتورين بآبائهم واخوانهم حنقاً على عدوهم وقد وطنوا على الموت انفسهم كيلا يسبقوا بثارات هؤلاء القوم، والله لن يقارعوكم إلا عن دينكم ليطفئوا السنة ويحيوا البدعة ويدخلوكم في أمر قد اخرجكم الله منه بحسن البصيرة، فطيبوا عباد الله انفساً بدمائكم دون دينكم، فإن الفرار فيه سلب العز والغلبة على الفيء وذل المحيا والممات وعار الدنيا والاخرة وسخط الله وأليم عقابه.

وينادي مذحجاً قبيلته الخاصة فتجتمع عليه ثم يسترسل في إتمام خطبته بشيء من الغضب يخالط صوته وهو يوجه الخطاب إليهم: ما أرضيتم اليوم ربكم ولا نصحتم له في عدوه فكيف بذلك وأنتم أبناء الحرب وأصحاب الغارات وفتيان الصباح وفرسان الطراد وحتوف الأقران ومذحج الطعان الذين لم يكونوا يسبقون بثأرهم ولا تطل دماؤهم ولا يعرفون في موطن بخسف وانتم حد أهل مصر كم واعد حي في قومكم وما تفعلوا في هذا اليوم فانه مأثور بعد اليوم فاتقوا مأثور الاحاديث في غد وأصدقوا عدوكم اللقاء فإن الله مع الصادقين، والذي نفس مالك بيده ما من هؤلاء ـ وأشار بيده إلى أهل الشام ـ رجل على مثل جناح بعوضة من محمد ﷺ وانتم والله ما أحسنتم القراع أجل سواد وجهي يرجع في وجهي دمي عليكم بهذا السواد الأعظم فإن الله عز وجل لو قد فضه تبعه من بجانبيه كما يتبع مؤخر السيل مقدمه.

وتنتهي خطبة مالك فتضج هذه الجماهير المتجمعة: خذ بنا حيث

احببت ومن هنا نعرف تأثير كلامه على الناس. والحق أن في كلامه لفتات نفسية جميلة تدل على ثقافة عميقة وفهم لعقليات الجماعة تماماً فهو ـ كما سمعتم ـ جمع في كلامه بين التأنيب والتقريع والتذكير والترغيب وهو بكلامه هذا خاطب أغلب الغرائز في نفوسهم فاستثارها وحفزها للوثوب.

خاطب غريزة الاحتفاظ بالكرامة وغريزة المحافظة على التقاليد الاسلامية والعربية وغريزة الخوف من افتضاح امرهم بعد حين وغريزة الاستعلاء ـ فهم سادة العرب وهم فرسان الطراد وهم مذحج الطعان ـ مع استعمال هذه اللهجة التي تقرب من اللهجات العائلية التي تشيع فيها لغة العاطفة ـ أجل سواد وجهي يرجع في وجهي دمي ـ.

وإذا صح ما يقولون من أن العقل الواعي يفقد تأثيره في مثل هذه المواقف التي تجمع بين التحمس والغضب وان العمل فيها للعقل الباطن إذا صح هذا فمالك ممن مُلىء عقله الباطن ايماناً واخلاصاً لمبدئه. وهذه الخطبة مثال من الأمثلة لإيمانه فهو لا يتحدث إليهم بغير مراعاة التقاليد الدينية التي يخشى عليها أن تتقلص بهزيمتهم. وإذا تحدث فسرعان ما يعود إلى حديث الإيمان.

وهنا أحب أن لا يغفل سادتي القراء عما في هذه الخطبة من القرب من كلام الإمام مما يدل على أن مالكاً كان ممن تأثر بخطب الإمام.

ويسير مالك بقبيلته وبقسم من العرب الذين التحقوا به ويلتقي بقسم من اليمانية وكانوا في اخر المنهزمين فيعاقدهم على الموت أو النصر ثم يسيرون جميعاً فيمر عليهم جماعة وهم يحملون يزيد بن قيس، فيقول الأشتر: مَن هذا؟ ويجاب بأنه يزيد بن قيس لما صرع زياد بن النضر رفع لأهل الميمنة رايته فقاتل حتى صرع، فيقول الأشتر: هذا والله الصبر الجميل والفعل الكريم.

وهنا يرسل كلمة تدل على تركيز الشجاعة في نفسه وهي في غاية السمو والجمال: أما يستحي الرجل أن ينصرف لم يُقتل ولم يقتل ولم يشف به على القتل. ويستمر الاشتر في زحفه. وهو ـ كما وصفه من شهد المعركة ـ كان يقاتل على فرس له في يده صفيحة يمانية إذا طأطأها خلت فيها ماءً منصباً فإذا رفعها كاد يغشى البصر شعاعها وهو يضرب قدماً ويقول:

الغمـــــرات ثـــــم ينجلينــــــا

وبهذه البسالة استطاع أن يعيد الميمنة إلى مركزها.

وتحتدم المعارك بين الجيشين فيقتل جماعة كبيرة من اصحاب معاوية، ويُقتل عمار بن ياسر وجماعة من أصحاب رسول الله فينشد مالك شعراً يعد فيه قتلى الشام ويذكر مقتل عمار:

نحـــن قتلنـــا حـــوشبـــا ... لمـــا غـــدا قـــد اعلمـــا
وذا الكـــــــلاع قبلـــــــه ... ومعبـــــدا إذ أقـــــدمـــا
إن تقتلـــــوا منّـــا أبـــا ... اليقظـــان شيخـــاً مسلمـــا
فقـــــد قتلنـــا منكـــم ... سبعيـــن رأســـاً مجـــرمـــا
اضحـــــوا بصفيـــن وقـــد ... لاقـــوا نكـــالاً مـــؤثمـــا

ويقبل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد القائد العام لجيش معاوية ومعه اللواء الأعظم بجميع أهل الشام ويلتقي بجيش الإمام، ثم يتبعه بجيش آخر فينسحب عنه جيش الإمام قليلاً ويغم الإمام ذلك ويغم الناس فيقبلون على الأشتر ويقولون: يوم من أيامك الأول وقد بلغ لواء معاوية حيث ترى ويتحمس الأشتر فيأخذ اللواء ويحمل وهو يقول:

إنـــي أنـــا الأشتـــر معـــروف الشتـــر ... إنـــي أنـــا الأفعـــى العـــراقـــي الـــذكـــر
لا مـــن ربيعـــة ولا حـــي مضـــر ... لكننـــي مـــن مـــذحـــج الغـــر الغـــرر

ثم يلتقي بالقوم فينكشفون عنه ويلاحقهم بالسيف فيرجعون إلى مراكزهم. وتهز النجاشي إذ ذاك الاريحية ويطرب لفعله فيقول:

رأينـــا اللـــواء لـــواء العقـــاب ... يقحمـــه الشـــاكـــيء الأخـــزر
كليـث العـريـن خـلال العجـاج ... واقبـــل فـــي خيلـــه الابتـــر
دعـونـا لهـا الكبـش كبـش العـراق ... وقـد خـالـط العسكـر العسكـر
فـــرد اللـــواء علـــى عقبـــه ... وفـــاز بحظـــوتهـــا الأشتـــر
كمـــا كـــان يفعـــل فـــي مثلهـــا ... إذا النـــاس معصـــوصـــب منكـــر
فـــإن يـــدفـــع الله عـــن نفســـه ... فحـــظ العـــراق بـــه الأوفـــر
إذا الأشتـــر الخيـــر خلـــى العـــراق ... فقـــد ذهـــب العـــرف والمنكـــر

ويبارز في تلكم الأيام عمرو بن العاص علياً ثم يبارزه بسر، ويلوذان بسوأتيهما من حده الفتاك. فيقوم الشاب ابن عم بسر ليثأر لابن عمه فيحمل على الإمام وهو يقول:

أرديـــت بســـراًوالغـــلام ثـــائـــره ... أرديـــت شيخـــاً غـــاب عنـــه نـــاصـــره

ويحمل الأشتر على الشاب وهو يقول:

أكـــل يـــوم رجـــل شيـــخ شـــاغـــره ... وعـــورة وســـط العجـــاج ظـــاهـــرة
تبـــرزهـــا طعنـــة كـــف واتـــره ... عمـــرو وبســـر رمينـــا بـــالفـــاقـــرة

ولا أظنكم تغفلون عما في بيته الأول من التهكم اللاذع وعلى الأخص هذا الشطر: وعورة وسط العجاج ظاهرة.

ثم يطعنه مالك فيكسر صلبه.

ويغم معاوية أمرُ الأشتر فيدعو مروان بن الحكم ويطلب إليه أن يسير بخيل من كلاع ويحصب لقتاله فيقول مروان: ادع لها عمروً فإنه شعارك دون

دثارك. ويطول الحديث فيدعى عمرو ويخرج بالخيل إلى مالك ويخرج إليه الأشتر وهو يقول:

يا ليت شعري كيف لي بعمرو ذاك الذي أوجبت فيه نذري
ذاك الذي اطلبه بوتري ذاك الذي فيه شفاء صدري
ذاك الذي ان ألقه بعمري تغل به عند اللقاء قدري

ويسمع عمرو صوت مالك فيتذكر مواقفه ويجبن عن لقائه ولكنه يستحي أن يرجع فتتنازع في نفسه عوامل الخوف والحياء، وأخيراً تؤثر عوامل الحياء فيقبل وهو يقول:

يا ليت شعري كيف لي بمالك كم فارس قتلته وفاتك
هذا وهذا عرضة المهالك

ويلتقي عمرو بمالك فيغشاه مالك بالرمح ويروغ عنه عمر فيصيب ذيل الرمح وجهه ويمسك بيده عليه ويستنجد بالفرار فيُسلم نفسه إليه، فيسوء ذلك شاباً من شباب الشام وتأخذه الحمية فتدفعه إلى الأشتر وهو يقول:

ان يك عمرو قد علاه الاشتر باسمر فيه سنان ازهر
فذاك والله لعمري مفخر يا عمرو يكفيك الطعان حمير
واليحصبي بالطعان أمهر دون اللواء اليوم موت أحمر

ويأنف الأشتر من مبارزته فيأمر ولده إبراهيم فيبارزه ثم يعالجه إبراهيم بضربة فيقتله، ويقبل حديث:

ليلة الهرير

بعد أن يسأم الناس القتال فيوثبهم الإمام للنصر النهائي ويستعد لتلكم الليلة باستعدادات كافية وكذلك أهل الشام. ويكون موقف مالك هو

الموقف الذي تطرب له النفوس.

ويتم الاستعداد ويخرج مالك من بين الصفوف ـ وقد لمح آثار السأم في جيش الإمام ـ وهو على فرس كميت ذنوب عليه السلاح لا يرى منه إلا عيناه وبيده الرمح ـ كما يحدث من شاهده إذ ذاك ـ وهو يضرب رؤوس أهل العراق برمحه ويقول: سووا صفوفكم سووا صفوفكم.

وينظره الناس فتعتدل صفوفهم وتعتدل راياتهم وتأخذ كل مكانها فيستقبله مالك بوجهه ويولي أهل الشام ظهره ـ كما يحدث نصر ـ ثم يحمد الله ويثني عليه ويكرر الحمد بقوله: الحمد لله الذي جعل فيكم ابن عم نبيكم أقدمهم هجرة وأولهم إسلاماً، سيف من سيوف الله صبه على أعدائه، فانظروا إليّ إذا حمي الوطيس وثار القتال وتكسر المران وجالت الخيل بالابطال فلا اسمع إلا غمغمة أو همهمة.

تعجبني كثيراً هذه البطولة التي تقرؤها في حديثه. ففي كل كلمة من كلماته نفحة من نفحات الاقدام تتجلى في اختياره هذه الالفاظ للثناء على الإمام. فالإمام على كثرة ما اختصه الله به من الصفات الطيبة لم يختر منها بعد صفتي السبق إلى الهجرة والسبق إلى الإسلام غير أنه سيف من سيوف الله صبه على أعدائه.

والفارس في الميدان لا ينظر غير صفات الفروسية ليخلعها على صاحبه ثم في اختياره لكلمات الوطيس، المران، القتام، الغمغمة، الهمهمة، مما يدل على تغلغل هذه الصفة في نفسه وهذه الجمل المتعاطفة التي طلب إلى الأبطال أن يجعلوه القدوة بها في الميدان تكاد أن تكون مترادفة ولكنها تحمل في كل واحدة منها شواظاً من نار.

ويحمل بعد هذا الكلام على أهل الشام ويطعنهم برمحه حتى ينكسر

الرمح، كما يحدث الرواة.

وابن نصر يحدثنا في كتابه (وقعة صفين) عن هذه الليلة الرهيبة، وعن النهار الذي سبق تلك الليلة، ثم عن النهار الذي لحقها وعن موقف مالك منها أحاديث مفصلة قد يضيق عن نقلها ما حددته لي اللجنة من الصفحات وسأقتطف لك الآن بعضها.

قال نصر: تراموا بالنبل ـ يعني أهل الشام والعراق ـ حتى فنيت نبالهم، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تقصفت واندقت، ثم مشى بعضهم إلى بعض بالسيوف وقد كسروا جفونها وعمد الحديد فلم يسمع السامع إلا تغمغم القوم وتكادم الافواه وصليل السيوف في الهام ووقع الحديد بعضه على بعض لهو أشد هولاً في صدور الرجال من الصواعق ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضاً وكسفت الشمس وثار القتام وضنت الألوية والرايات.

وقال: ثم استمر القتال من نصف الليل إلى ارتفاع الضحى وافترقوا على سبعين الف قتيل ـ وقد يكون هذا العدد قليلاً بالنسبة إلى ما وصف من هول المعركة وشدتهاـ.

وقد اقتطفت هذا الفصل تمهيداً لموقف مالك الذي يحدث عنه بقوله: والاشتر في ميمنة الناس وقد يسير ما بين الميمنة والميسرة فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء بالإقدام على التي تليها.

فلم يزل يفعل ذلك حتى أصبح والمعركة خلف ظهره وهو يقول لأصحابه: ازحفوا قيد رمحي هذا فإذا فعلوا قال ازحفوا قاب هذا القوس فإذا فعلوا سألهم مثل ذلك حتى مل أكثر الناس الإقدام.

كل ذلك وهو يصبرهم على فرسه الكميت المحذوف وقد وضع مغفره على قربوس السرج وهو يقول: اصبروا يا معشر المؤمنين فقد حمي الوطيس

ورجعت الشمس من الكسوف واشتد القتال ألا من يشري نفسه لله ويقاتل مع الأشتر حتى يظهر أو يلحق بالله. ولا يتصور الأشتر ـ كما عرفنا من نفسيته ـ غير هذين إما الظفر أو معانقة المنون.

ويعجب فعله هذا بعض من كان في نجوة عن القتال فيقول لصاحبه في تلكم الحال: أي رجل هذا لو كانت له نية؟ فيقول له صاحبه ـ وقد ازعجه هذا الحديث ـ وأي نية أعظم من هذه ثكلتك أمك وهبلتك، إن رجلاً فيما قد ترى قد سبح في الدماء وما أضجرته الحرب وقد غلت هامة الكماة من الحر وبلغت القلوب الحناجر وهو ـ كما ترى ـ يقول هذه المقالة: اللهم لا تبقنا بعد هذا، ولعله يقصد الإمام أو اليوم.

وفي الأخير يطلب الأشتر إلى أصحابه أن يشدوا معه فيكلمهم بلهجة عاطفية: شدوا فِداً لكم عمي وخالي شدةً ترضون بها الله وتعزون بها الدين، فإذا شددت فشدوا ثم يأمر صاحب رايته أن يتقدم ويشد، ويشد صاحب الراية ويشد مالك خلفه ويشد معه أصحابه إلى أن ينتهي إلى معسكر معاوية وتدور معارك شديدة ويقتل صاحب رايته وهو ثابت ويرى الإمام النصر مقبل من جانبه فيمده بالخيل والرجال.

وهذه المواقف التي عرضنا لبعضها تصور لنا بلاء الأشتر في تلكم الليلة. والحق ان الأشتر كان محور الحركة في صفين بعد الإمام وكان لا يعمل إلا عن عقيدة متغلغلة في نفسه تغلغلاً عظيماً. وجواب الرجل لصاحبه المغفل الذي اتهم نية مالك، لفتة من لفتات الحقيقة الواقعة. وإلا أفيمكن أن يعرض الرجل نفسه على هذا النحو ويتمنى لنفسه القتل وهو لا يعمل عن نية صالحة ـ لا أصدق ذلك ـ.

وتنتهي هذه الليلة عن سبعين ألف قتيل ـ كما حدثنا نصر ـ ولكن الكثرة الغالبة من أهل الشام. لذلك ضعفوا عن الاستمرار في الحرب وحاول

معاوية الفرار بنفسه عندما ضايقه جيش مالك ودعا بفرصة، غير أن عمرو بن العاص يلتفت إلى:

خديعة التحكيم

فيدعو معاوية إليها ويهش لها معاوية، فيأمر برفع المصاحف على الرماح، ثم يأمر المنادين أن ينادوا: حاكمونا إلى القرآن حاكمونا إلى القرآن. وتدور أحاديث كثيرة تنتهي باجتماع اثني عشر ألفاً من أصحاب الإمام عليه، يدعونه إلى قبول التحكيم ويأبى الإمام عليهم فيضايقونه ويقولون فيما يقولون: إن لم تحاكم القوم إلى القرآن ألحقناك بعثمان، أرسِل إلى الأشتر ـ وكان قائد الحملة ـ فليخل سبيل أهل الشام.

ويقول الإمام: إنها خديعة إنها خديعة. فيأبون عليه ويلتجيء أخيراً إلى الإرسال على الأشتر فيرسل إليه يزيد بن هاني أن ائتني ويمضي ابن هاني إليه ـ وقد أوشك أن ينتصر على أهل الشام ـ ويقول له ذلك ـ فينفجر الاشتر غيظاً من أهل الكوفة وهو يراقب النصر فينظره في شفار السيوف وما هي إلا لحظات حتى يعانق الظفر ـ ويقول لابن هاني: ائت الإمام وقل له ليس هذه الساعة الذي ينبغي لك أن تزيلني عن موقفي، إني قد رجوت الفتح فلا تعجلني. ويعود يزيد بهذه الرسالة إلى الإمام.

وقبل أن يبلغها يرتفع الضجيج من قبل المعركة ويعلو الرهج وتظهر دلائل الفتح والنصر لمالك على أهل الشام. ويبلغ يزيد رسالة الأشتر فيظن القوم ـ وبعض الظن إثم ـ أن الإمام أرسل إليه أن يعجل عليهم ويظهر ذلك من حديثهم إذ يقولون: والله ما نراك أمرته إلا بالقتال.

الإمام ـ وقد ساءته كثيراً هذه اللهجة ـ: أرأيتموني شاورت رسولي إليه؟ أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون؟

القوم: ابعث إليه فليأتك وإلا فوالله اعتزلناك.

الإمام ليزيد: ويحك قل له أقبل فإن الفتنة قد وقعت.

ويسرع يزيد إلى الأشتر ويبلغه عن الإمام.

الأشتر: أبرفع هذه المصاحف؟

يزيد: نعم.

مالك ـ وقد رأى صدق فراسته في أهل العراق ـ: أما والله لقد ظننت أنها حين رفعت ستوقع خلافاً وفرقة. إنها مشورة ابن النابغة. ثم ينظر إلى الفتح القريب وإلى ما يرى من أصحابه فيحتدم ويرفع صوته ويخاطب إبن هاني: ألا ترى إلى ما يلقون؟ ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا؟ أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه؟

يزيد: أتحب انك ظفرت ههنا، وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو فيه يفرج ويسلم إلى عدوه.

مالك ـ وقد رجع إلى وعيه ـ: سبحان الله، لا والله لا أحب ذلك.

يزيد: إنهم قد قالوا له وحلفوا عليه لترسلن إلى الأشتر فليأتينك أو لنقتلنك بأسيافنا كما قتلنا عثمان أو لنسلمنك إلى عدوك.

وهنا لا يرى الأشتر بداً من العودة إليهم ليسلم على حياة سيده الإمام. فيعود وقد امتلأ غيظاً وحنقاً على هؤلاء ويصل إليهم فينفجر بركانه بأشد من سفع النار: يا أهل الذل ـ ينادي تلكم الجماهير المخدوعة ـ والوهن، أحين علوتم القوم وظنوا أنكم لهم قاهرون ورفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها وتركوا سنة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم.

ثم يقول: امهلوني فواقاً فإني قد أحسست بالفتح.

أصوات: لا نمهلك.

هو: أمهلوني عدوة الفرس فإني قد طمعت في النصر.

أصوات: إذن ندخل معك في خطيئتك.

هو ـ وقد ازداد ارتفاع صوته ـ: حدثوني عنكم وقد قتل أماثلكم، متى كنتم محقين؟ أحين كنتم تقتلون أهل الشام فأنتم الآن حين امسكتم عن قتالهم مبطلون؟ أم انتم الآن في امساككم عن القتال محقون؟ فقتلاكم إذن الذين لا تنكرون فضلهم وأنهم خير منكم في النار.

اصوات: دعنا يا أشتر إنا لسنا نطيعك فاجتنبنا.

هو: خدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم يا أصحاب الجباه السود كنا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت ألا فقبحاً يا أشباه النيب الجلالة ما أنتم برائين بعدها عزاً أبداً، فابعدوا كما بعد الظالمون.

وهنا شاع في المجلس السباب فلم ير الأشتر جواباً غير أن يقابلهم بمثله ويضرب وجه دوابهم فيقابلونه بالمثل.

ويردد غيظ الأشتر ويزداد غضبه فيتذكر النصر الذي كان بينه وبينه عدوة الفرس ثم ينظر هذه العقبة المعترضة في طريق النصر، فتبرز فيه نفسية القائد الهائج الواثق من كفاءته وكفاءة مخاطبه، ويلتفت إلى الإمام ويلفظ أعظم كلمة تدل على اطمئنان نفس ورباطة جأش:

احمل الصف على الصف تصرع القوم

تعجبني والله هذه النفسية التي لا تبالي في كثرة الأعداء حولها، ولا تزيدها كثرتها إلا وثوقاً واطمئناناً. تصوروا هذه الجماهير المجتمعة حول الإمام وقد ضايقته تلك المضايقة الشديدة، وتصوروا هذا البطل الفتاك وهو واقف على رؤوسهم، ثم تصوروا هذه الكلمة التي لفظتها شفتاه الكريمتان! تصوروا كل ذلك لتعرفوا كيف تركزت في نفسه ملكة الشجاعة كما يعبر القدماء.

ولكن الإمام يحسب للعاقبة حسابها، فيحجم عما أشار به مالك ـ وهو يتنفس الصعداء ـ.

وهنا يشيع في المجلس لغط لا يعرف دافعه ـ ولعله من دسائس معاوية ـ أن الإمام قد قبل ورضي. ويسمع مالك بذلك فيتصوّر واجبه الديني ويعلن عن نفسه: إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضي فقد رضيت بما رضي به أمير المؤمنين. وبعد حديث كثير ـ لا يهمنا التعرض له الآن ـ يستسلم الإمام إلى التحكيم.

فيسر أهل الشام ويضربون بينهم موعداً لاختيار الحكمين، ثم يجتمعون فيختار أهل الشام ـ بالإجماع ـ عمرو بن العاص ويختار أهل العراق أبا موسى.

ولكن أبا موسى ـ كما رأيتم فيما تقدم ـ كان من حزب ابن عمر وكان يخذل الناس عن الإمام ولم يكن معهم بصفين، فلم يقبل الإمام به وأراد أن يكون مكانه ابن عباس عبد الله.

فيمتنع العراقيون ويقولون إنه منك ونريد أن يكون رجلاً حاله بالنسبة

إليك كحاله بالنسبة إلى معاوية، فيشير عليهم بالاشتر.

فتثور في نفس الأشعث غريزة الحسد للاشتر وهو ـ كما رأينا ـ يعتبر نفسه من زعماء العراق الذين لهم مقامهم، وربما يرى نفسه كالاشتر في زعامته. لذلك يهمه أن لا يتقدم عليه ولا يكون هو من دونه، فيقول: وهل سعر الأرض علينا إلا الأشتر؟ وهل نحن إلا بحكم الاشتر؟

وتستفزّ الإمام هذه اللهجة، فيستفهم مستغرباً: وما حكم الأشتر؟

ويقول الأشعث: حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيف فيكون ما أراد وما تريد.

وأخيراً يرسل أولئك على الأشعري ـ وكان في بلدة من بلدان الشام ـ ويقبل فيدخل المعركة ويقبل الأشتر على الإمام ـ وهو يتميز غيظاً ـ ويقول: ألزّني يا أمير المؤمنين بعمرو بن العاص فوالذي لا إله غيره لئن ملأت عيني منه لأقتلنه.

ويحدث نصر عن آراء زعماء الكوفة في أمر التحكيم، فيحدث عن الأشتر يقول: أما كبش العراق ـ يعني الاشتر ـ فإنه لم يكن يرى إلا الحرب، ولكنه سكت على مضض.

وينتهي الأمر فيكتب كتاب الصلح بين الطرفين. ويجيء دور الأشتر في الشهادة فيه فيقول: لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها شمالي إن كتب لي في هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادعة، أولست على بينة من ربي ويقين من ضلالة عدوي؟ أولستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الخور؟

وهي كلمات تدل على ثورته النفسية من هذه الأوضاع. وأنا والله ما قرأتها إلا وعلاني الوجوم، لأني أتصور ذلك الأسد الثائر الهائج وهو يبرز من خلال نوافذها مقهوراً مخذولاً، يريدون أن يضعوا في رجليه القيود وهو

يتمنع حيث لا ينفع الامتناع.

وماذا يريدون منه؟ يريدون أن يوقع على الصحيفة التي تدل على ظفر أهل الشام وهزيمة أهل العراق. إن هذا لا يكون ويقول رجل ـ وهو يحاول أن يستدرجه إليها بلهجة الظافر ـ: ما رأيت خوراً ولا ظفراً هلم فاشهد على نفسك وأقر بما في هذه الصحيفة فإنه لا رغبة بك عن الناس.

ويسوء مالك ذلك فيجيبه ـ وهو بعد غضبان ـ: بلى والله إن بي لرغبة عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة، ولقد سفك الله بسيفي دماء رجال ما أنت بخير منهم عندي ولا أحرم دماً. يقول عمار بن ربيعة: نظرت إلى ذلك الرجل وكأنما قطع على أنفه الحمم، وهو الأشعث بن قيس.

وأخيراً يتصور إمامه ويتصور عظم مقامه واستسلامه لهؤلاء بعد أن ألجأ إلى الاستسلام فيقول: ولكن قد رضيت بما صنع علي أمير المؤمنين ودخلت فيما دخل فيه وخرجت مما خرج منه، فإنه لا يدخل إلا في هدى وصواب. وهنا يستسلم الأسد للقيود بدافع الإيمان والانقياد لسيده ومولاه، فيوقع على الصحيفة على ما ينقل بعض المؤرخين.

- ٩ -

وينتهي أمر التحكيم إلى ضرب موعد للحكمين، فيفترق الجيشان ويسير الإمام إلى الكوفة ويسير في ركابه مالك ويوزع ولاته على محل ولايتهم، فيعود الأشتر إلى محل ولايته بالجزيرة ونصيبين ويباشر عمله هناك.

وتضطرب على الإمام مصر ـ لدسائس معاوية وعمل الدعاوة من قبل العثمانيين فيها وكان عليها من قبل الإمام محمد بن أبي بكر بعثه إليها بعد أن ضويق على عزل قيس ـ ويبلغ الإمام ذلك فلا يرى لمصر بداً من أحد اثنين، إما قيس أو الأشتر. فيترجح في ذهنه الأشتر ويرسل إليه وهو بنصيبين:

أما بعد: فإنك ممن أستظهر به على إقامة الدين واقمع به نخوة الاثيم وأسدّ به الثغر المخوف، وكنت وليتُ محمد بن أبي بكر مصر فخرجت عليه بها خوارج وهو غلام حدث ليس بذي تجربة للحرب ولا بمجرب للأشياء فأقدم عليّ لننظر في ذلك فيما ينبغي واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك والسلام.

ويبلغ الأشتر الكتاب فيخلف عليها من قبله رجلاً يطمئن إليه، ويقبل على الإمام فيتحدثان عن أمر مصر وينتهي الحديث عن لزوم سفره إليها. فيتأهب للخروج ثم يقبل على الإمام ليستمع إلى دروسه القيمة التي اعتاد أن يتلقاها في مثل هذه الأزمات. ويشرع الإمام في إلقاء الدروس عليه فيفتتحها بكلمة تكشف لمالك عن رأي الإمام فيه، وهو رأي عرفناه مما تقدم من كلمات الإمام فيه، فهو ممن يستظهر به على إقامة الدين وهو ممن يسد به الثغر المخوف وهو ان تترك وصيته فللاكتفاء برأيه، كما يعبر عن ذلك في

افتتاح هذه الدروس: أخرج رحمك الله فإني إن لم أُوصك اكتفيت برأيك.

ولكنه مع ذلك يوصيه بكلمات يحدد بها مهمة السياسي الكبير الذي خبر عقليات المجتمع وفهم نفسيات الأفراد يقول: استعن بالله على ما أهمك، فاخلط الشدة باللين، وارفق ما كان الرفق أبلغ واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة.

وهذه الكلمات على إيجازها تمثل أُصول السياسة العامة. أما كيفية التطبيق فذلك ما يقوم بإلقائه الإمام في كتاب العهد.

كتاب العهد

وإذا ذكرنا كتاب العهد فقد ذكرنا أول وثيقة تأريخية اسلامية في علم السياسة، يضعها سياسي محنك فهم نفسيات الشعوب فهماً تاماً فشرع لها ذلك الدستور القويم. وقد لاقى هذا الدستور عناية من الشراح القدماء، فألّف في شرحه جماعة كبيرة. وقد شرحه من الأدباء المتأخرين الأستاذ المحامي توفيق الفكيكي بكتاب قارن فيه بينه وبين بعض النظم الأوروبية الحديثة، فكان شرحاً موفقاً يلائم عقليات أدبائنا المحدثين الذين تأثروا بالثقافة الغربية.

وفي عقيدتي أن هذا العهد الذي ترجم إلى عدة لغات كان مما استعان به واضعوا بعض النظم الحديثة. وحبذا لو تأثرت نظمنا الإسلامية بنظامه القويم مع أنه وضع من أجل هذه الأمة المرحومة. وكم كنت أود لو تساعدني الظروف لأدرس في هذا الكتاب ذلك العهد الكريم من الوجهة النفسية، لنستطيع أن نفهم مقدار ما تلقاه مالك عن الإمام في فهم عقليات الشعوب ونفسياتهم ومقدار ما وضع من النظم لكيفية إدارتهم في ذلك العهد.

وسأقتطف للقارىء الكريم نماذج من ذلك العهد مع شيء من

التعليق. وسأختار منه ما يمس حياتنا العامة لعلّنا ننتفع أو ينتفع به أولو الأمر منا:

يقول عليه السلام في افتتاح العهد بعد البسملة:

هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر جباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها ـ ثم يسترسل في أمره بطاعة الله ـ ويقول بعدها: ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم.

وهذه حقيقة نفسية يجب أن يلحظها الموظف الحكومي، فهو قبل أن يكون في ذلك المنصب كان ربما أخذ بعض المآخذ على ذلك الموظف الذي كان قبله، فإذا كان في منصبه وجب أن يلحظ تلك المآخذ فيرفعها عن نفسه ثم يبسط نفسه للناس ليسمع المآخذ عليه من قبلهم فيظهر نفسه منها. وكم كان حظ الأمة سعيداً لو كان يستمع السياسيون لنصيحة الإمام أو قل لنصائح الإمام في هذا العهد. فهو يقول:

واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم.

وإذا شعرت الرعية بعطف السلطان ولطفه وحبه لها، كانت أسرع للانقياد. وهذه حقيقة نفسية لها تأثيرها على أفراد الشعوب. ويقول:

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق واعمها في العدل واجمعها لرضى الرعية. فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة.

إلى أن يقول:

العدةُ للأعداء، العامةُ من الأمة فليكن صغوك لهم وميلك معهم.

فالرأي العام كما رأيتم هو المقدم عند الإمام وهو الذي يجب أن يلاحظ، فمنه العدة والعدد وفيه يستقيم أمر البلاد. ثم يعرض لبطانة الوالي وكيف يجب أن تكون. يقول:

وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك، أطلبهم لمعائب الناس، فإن في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك.

ثم يعود لذكر بطانته وحاشيته الذين يرجع إليهم في مقام المشورة إذ يقول:

ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله.

وهؤلاء ـ كما أبان الإمام ـ إذا دخلوا في المشورة، أفسدوا الحقائق لتغلب غرائزهم ـ المتركزة في نفوسهم المتغلبة على سائر الغرائز ـ على أحاديثهم في مقام المشورة. ويحدث عن الوزراء وعن الصفات التي يجب أن تتوفر فيهم. يقول:

إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة فإنهم أعوان الأَثَمة وإخوان الظلمة وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم، ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه، أُولئك أخف عليك مؤونة وأحسن لك معونة وأحنى عليك عطفاً وأقل لغيرك إلفاً، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك

وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعاً من هواك حيث وقع.

ثم يعرض لجلسائه الذين يجب أن تتوفر فيهم جملة من الصفات. يقول:

والصق بأهل الورع والصدق ثم رضهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدني من العزة.

وهنا يجب أن نتصور قيمة كلام الإمام، فالإطراء الكاذب والمدح الباطل هما مما ينميان بعض الغرائز السيئة التي تتقاعد بالإنسان عن النهوض بأبسط الأعمال القيمة، ومتى أشبع الوالي قسماً من الغرائز اطمأن إلى هذا اللون من الغذاء الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

ويقول بعد هذا في تحديد سيرته مع الناس:

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة، وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه، واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راعٍ برعيته من إحسانه إليهم وتخفيفه المؤونات عليهم وترك استكراهه إياهم على ما ليس قبلهم، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك.

ويعلل ذلك بقوله:

فإن حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلاً.

وما أدري ما كان شأن الأمة لو كانت الولاة تحسن الظن بهم كما ينبغي ـ وهي بالطبع تقابلها بالمثل ـ أكان يجري بينهما ما نراه من الملاحاة التي تنتهي بضياع الثقة التي يتركز عليها بناء المجتمع وضياع قسم من أموال الحكام، كما هو الشأن في هذا الزمان.

ويفصل نظريته في النظام الطبقي. فيقول:

واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، فمنهم الجنود ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الانصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة، وكل قد سمّى الله سهمه ووضع على حده فريضة في كتابه وسنة نبيه صلّى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً.

وهنا يحيل الأشتر الوالي على النظم التشريعية الأولية التي نظمها مبدع الكون في كتابه المجيد أو سنة نبيه الكريم.

ويعود إلى هذه الطبقات فيبين صفاتها ومميزاتها بقوله:

فالجنود بإذن الله حصون الرعية وزين الولاية وعز الدين وسبل الأمن، وليس تقوم الرعية إلا بهم، ثم لاقوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به في جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم.

وهو ـ كما ترى ـ يطلب إلى الوالي أن يوفر على الجنود أعطياتهم، لأن على كواهلهم تقوم المحافظة على البلاد وعلى الأمن، وإذا وفر عليهم استطاع أن يجتذبهم إليه تماماً فيعملون بإخلاص، والجندي إذا علم بأنه مكفول النعمة وأنه لا يفكر بحياته المادية أخلص للجهاد وسمح بنفسه للتضحية في سبيل بلده الذي تكفل له بإدارة شؤونه.

ويقول الإمام بعد هذا ـ وهو يريد أن يربط بين هذه الطبقات:

ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب، لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويأتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها، ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات

فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ويقيمونه من أسواقهم ويكفونه من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم، ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم، وفي الله لكل سعة ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه.

إلى أن يقول: فولّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك وأتقاهم جيباً وأفضلهم حلماً ممن يبطأ عن الغضب ويستريح إلى العذر ويرؤف بالضعفاء وينبو على الأقوياء، وممن لا يثيره العنف ولا يقعده الضعف.

وعلى ذلك النحو يربط بين تلكم الطبقات التي عدها وطلب إلى واليه أن يختار منها الموظف الحازم. فتوظيفه لا يكون إلا بعد اختبار كفاءته، وهو أول نظام ينصّ على اشتراط الكفاءة في الموظف. وعلى هذا النحو ينظر إلى حال القضاة، فيضع لاختيارهم مادة خاصة يقول فيها:

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتّضاح الحكم.

وينظر بعد ذلك حال الموظفين عامة فيضع لهم مادة مبنية على الكفاءة، فهو يقول:

ثم انظر إلى عمالك فاستعملهم اختياراً ولا تولهم محاباة وأثرة، فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة، وتوخَّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الاسلام.

وهذا لحاظ نفسي عظيم، فأهل البيوتات يكونون بالطبع أميل إلى العدل، لأن جملة من غرائزهم كغريزة السيطرة وغريزة النهم والجشع مما

تتوفر عادة في سائر الناس، كان أولئك قد أشبعوها قبل أن يصلوا الحكم، والإمام نفسه يعلل ذلك بما يقارب هذا إذ يقول:

فإنهم أكرم أخلاقاً، وأصح أعراضاً، وأقل في المطامع أشرافاً، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً.

ثم تأتي بعد هذا نظرته إلى رواتب الموظفين، فيضع لها هذه المادة:

ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إنْ خالفوا أمرك.

وهذا صحيح كما ذكر الإمام، فالموظف إذا ازداد راتبه وقف عن ارتكاب جملة من الجرائم، وعلى الأخص الرشوة وسرقة أموال الدولة و...

وتأتي نظرته إلى ضرورة التفتيش فيخصها بهذه المادة:

ثم تفقّد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم.

ويعلل ذلك بقوله:

فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية، فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة، اجتمعت بها عندك أخبار عيونك، اكتفيت بذلك شاهداً، فبسطت عليه العقوبة.

والدواعي ـ كما رأيتم ـ كثيرة، لعل أهمها عدم تصديق الوشايات عليه ما لم تكن من العيون، ثم إقباله على الجد والعمل، فليتنبه سادتي من أُولي الأمر.

لقد أطلت ـ يا سادتي القراء ـ فاسمحوا لي فإن هذا العهد الكريم ما تحولت عن نقطة فيه إلا وجُذبت إلى نقاط، فما أدري أيها اقتطف؟ وهاكم

الآن خاتمة اقتطافي، وهي نظرته إلى وجوب اعتماد الحكومة على التجارة والإصلاح والعمران أكثر من اعتمادهم على الضريبة فهو يقول:

وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا ينال إلا بالعمارة ومن طلَب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً، فإن شكَوا ثِقلاً أو علة أو انقطاع شرب أو بالَّة أو إحالةَ أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم، ولا يثقلنّ عليك شيء خففت به المؤونة عنهم، فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم.

إلى أن يقول: وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها.

وما أسعد إخواني الريفيين الذي أسعدوا البلاد بضرائبهم لو يطبق هذا النظام. ويعرج على التجارة والتجار فيقول:

ثم استوصِ بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً.

إلى أن يقول: فانهم مواد المنافع وأسباب المرافق.. الخ.

والتجار خير عضد للحكومة إذا مهدت الحكومة لهم باب العمل واستوصت بهم العمال. فأين من ينظر هذا ثم أين؟

قارئي الكريم، هذه نبذ أرجو أن نقف عندها لنعتبر فيما يعود إلينا، ونجعلها أمام أعيننا لنتشجع على ما نريد. فاسمح لي يا سيدي أن اكتفي بها وانتقل إلى ختام العهد حيث يقول:

وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على اعطاء كل رغبة أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه، مع حسن الثناء في العباد وجميل الأثر في البلاد وتمام النعمة وتضعيف

الكرامة، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، إنا إليه راجعون والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً والسلام.

ويشاء الله أن يستجيب للإمام دعاءه في مالك فيشرّفه بالشهادة، وذلك حيث يخرج مالك من الإمام وهو متجه إلى مصر وقد زوده بهذه الاضمامة من الدروس القيمة وبكتابه: إلى أهل مصر:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى أمة المسلمين الذين غضبوا لله حين عصي في الأرض وضرب الجور بارواقه على البر والفاجر، فلا حق يستراح إليه ولا منكر يتناهى عنه، سلام عليكم فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فقد بعثت إليكم عبداً من عبيد الله لا ينام أيام الخوف ولا ينكل عن الأعادي حذار الدوائر، أشدّ على الكفار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مَذحج فاسمعوا له وأطيعوا فإنه سيف من سيوف الله لا نابي الضريبة ولا كليل الحد، فإن أمركم أن تقدموا فاقدموا وإن أمركم أن تنفروا فانفروا، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمري، وقد آثرتكم به على نفسي لنصحه لكم وشدة شكيمته على عدوكم، عصمكم الله بالهدى وثبتكم على اليقين، والسلام.

ولغة الإمام في هذا الكتاب لغة تصور صاحبنا مالكاً أجمل التصوير. فهو ـ كما ذكر الإمام وكما رأينا ـ لا ينام أيام الخوف ولا ينكل عن الأعادي، ومواقفه المتقدمة تشهد له بذلك، وهو سيف من سيوف الله. . . الخ. وهنا أحب أن نقف عند قوله: وقد آثرتكم به على نفسي. فهي كلمة تدل على تركز مقامه في نفس الإمام عليه السلام.

- ١٠ -

ويبلغ معاوية أن الأشتر خرج إلى مصر، فيغمه ذلك ويسوؤه وتكاد أمانيه وآماله في مصر وفي الاستيلاء على مصر تذهب أدراج الرياح، وذلك لأن الأشتر كان قويّ الساعد قويّ القلب قويّ التفكير قويّ الإرادة، وهو يعلم بهذه كلها من أيام صفين.

فلم يكن له إلا أن يدبر حيلة للقضاء على الأشتر قبل أن يبلغ مصر. وكيف يقضي عليه؟ هذا ما يهمه كثيراً فليفكر فيه ويفكر، فينتهي إلى دسيسة السم. فهو خير وسيط للقضاء عليه، فليراجع إذن رجلاً من أهل الخراج ليقف له بالطريق فيدس إليه السم، على أن يعفيه من الخراج ما دام.

ويبعث إليه ويتفق معه على هذه الصورة، فيسافر الجايستار إلى القلزم ـ وهو منزل يقع في طريق مصر للراحل إليها ـ لينتظر الأشتر هناك. ويلتفت معاوية إلى أهل الشام فيقول: إن علياً وجه الأشتر إلى مصر فادعوا الله أن يكفيكموه.

يقول الراوي: فكان أهل الشام يدعون عليه في كل يوم، وهي حيلة لمعاوية تعرف تأثير خداعها على الجماهير.

ويسير الأشتر إلى مصر ومعه حاشيته ويقبل على القلزم وفيه هذا الجايستار، وقد جلس هناك وأعد عدته للقضاء عليه. ويقبل على الأشتر فيعرض عليه أن يقوم بضيافته ـ وهو رجل من أهل الخراج ـ والأشتر رجل عربي كريم ـ ومن صفات العربي الكريم أن لا يمتنع من الضيافة لأن الامتناع عندهم من علائم البخل ـ فكان من الطبيعي أن يلبي دعوة هذا الفقير، ومالك

رجل متواضع شديد التواضع لا تهمه هذه الأنانيات التي يفنى فيها غيره من الولاة.

ويقدم هذا الجايستار عسلاً مدوفا به السم بعد أن يقدم الطعام، فيأكله ويشرب السم ويسري السم إلى فؤاده فيعانق الشهادة التي طلبها له الإمام بدعائه المتقدم.

ويذكر ابن أبي الحديد وجوهاً أخر لشهادته، منها أنه قتل بمصر. وليس من المهم التعرض لها الآن، ولعل الارجح هو ما ذكرناه. وبهذا يفقد العالم الاسلامي سيفاً من سيوف الله لا كليل الحد ولا نابي الضريبة ـ كما يعبر عنه الإمام ـ ويفقد شخصية كانت من أعظم الشخصيات التي جاهدت في سبيل استنقاذ الدين الإسلامي من براثن أعدائه. فرحمة الله عليه ويكون ذلك في سنة ٣٨ هجرية.

ويشيع خبره في الآفاق فتقال كلمات في تأبينه في مختلف الأصقاع وفي مختلف الأزمان وهاكم شيئاً من الكلمات.

قال معاوية لما بلغه ذلك ـ وقد صعد المنبر وجمع الناس من أهل الشام ـ: أما بعد: فإنه كانت لعلي يمينان قطعت إحداهما بصفين وهو عمار وقطعت الأخرى وهو مالك.

وهي كلمة قد لا يخفى ما فيها من الشماتة في الإمام.

ويقول ابن العاص ـ وقد سرَّ بموته ـ: إن لله جنوداً من العسل.

ويقول الإمام عليه السلام في تحديد علاقته به: كان لي كما كنت لرسول الله. وهي كلمة نرجو أن نقف عندها بعد حين.

ويقول عليه السلام أيضاً ـ وقد جاءه الخبر واظلمت في عينه الدنيا ـ: إنا لله

وإنا إليه راجعون، اللهم إني احتسبه عندك فإن موته من مصائب الدهر.

ويقول: رحم الله مالكاً فقد كان وفى بعهده وقضى نحبه ولقي ربه، مع أنا قد وطّنا أنفسنا أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله صلّى الله عليه وآله فإنها من أعظم المصيبات.

وهذه الكلمات تمثل لك لوعة الإمام وتأثره على مالك، وتصور لك مقدار ما أحدثه هذا المصاب في الإمام. فهو من مصائب الدهر التي لا تطاق لولا أن يوطن الإمام نفسه على الصبر على كل مصاب بعد مصاب الرسول وهو من أعظم المصيبات ولكنه محتسب عند الله.

وقد حدّث جماعة من أشياخ النخع قالوا: دخلنا على أمير المؤمنين عليه السلام حين بلغه موت الأشتر فوجدناه يتلهف ويتأسف عليه، ثم قال: لله در مالك وما مالك لو كان من جبل لكان فندا ولو كان من حجر لكان صلدا، أما والله ليهدن موتك عالماً وليفرحن عالماً، على مثل مالك فليبك البواكي وهل موجود كمالك.

ويقول علقمة بن قيس النخعي فما زال علي يتلهف ويتأسف حتى ظننا أنه المصاب به دوننا وعرف ذلك في وجهه أياماً.

وبهذا اللون القاتم يواجه الإمام مصاب صاحبه الأشتر وهو يتلهف ويتأسف. والإمام ـ كما نعلم من حاله ـ صبور عند الشدائد، ولكنه مع ذلك فقد ظهر عليه التألم لفقد ذلك القائد الجبار، ولعل قسماً من تألمه يعود إلى شماتة الأعداء به، فمصابه ـ كما ذكر الإمام ـ يهد عالماً ويفرح عالما.

وقد رأيت مقابلة معاوية لهذا المصاب بتلكم الشماتة: كانت لعلي يمينان. وهنا أحب أن نقف عند قوله: لو كان من حجر.. الخ، فهي كلمة وحدها تمثل لك المثل الأعلى مجسماً في شخص مالك الأشتر فهو لا يكون

إلا صلداً أو فنداً لو كان من أقسام الأحجار أو الجبال.

ويقول أخيراً في كتابه إلى محمد بن أبي بكر بعد هذه الحادثة:

ألا أن الرجل الذي كنت وليته مصر كان رجلاً لنا مناصحاً وهو على عدونا شديد، فرحمة الله عليه فقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون، فرضي الله عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب.

هنيئاً لك يا سيدي الأشتر ما لاقيته في حياتك من جهاد متواصل وإيمان ثابت يُرضي عنك إمامك فيدعو لك بمضاعفة الثواب وحسن المآب. هنيئاً لك ذلك الأجر الذي حصلته في سبيل صراحتك وشدة اطمئنانك فإنك لم تحاب ولم تداجل ولم تترك واجباً من واجباتك من أجل أطماع هذه الدنيا التي تهافت عليها أولئك الماديون.

فحبذا يا سيدي لو جعلت سيرتك مثلاً للشباب في هذا اليوم، ليتعلموا منك الإخلاص والإيمان والتضحية في سبيل واجباتهم وفي سبيل الدفاع عن مبدئهم. ويا حبذا لو جعلت سيرتك من المثل العليا للشباب الذين انغمسوا في عالم المادة فانجرفوا بتيارها الصاخب، لعلهم بذلك يستعيدون شيئاً من مجدهم الروحي الغابر، وعسى أن يتوفقوا لذلك.

وتقول سلمى أُم الأسود بن الأسود النخعي ترثي مالكاً:

نبا بي مضجعي ونبا وسادي	وعيني ما تهم إلى رقاد
كأن الليل أوثق جانباه	واوسطه بأمراس شداد
أبَعْد الأشتر النخعي نرجو	مكاثرة ويقطع بطن وادي
أكرّ إذا الفوارس محجمات	واضرب حين تختاف الهوادي

وهنا أرجو أن لا يفوتنا ما في بيتيها الأولين من الجمال والتأثر الذي انبعث ـ حسبما أعتقد ـ عن عاطفة شديدة وانفعال مهم.

ويقول المثنّى يرثيه:

ألا ما لضوء الصبح أسود حالك ... وما للرواسي زعزعتها الدكادك
وما لهموم النفس شتى شؤونها ... تظل تناجيها النجوم الشوابك
على مالك فليبك ذو الليث معولا ... إذا ذكرت في الفيلقين المعارك
إذا ابتدر الخَطي وانتدب الملا ... وكان غياث القوم نصراً مواشك
إذا ابتدرت يوماً قبائل مذحج ... ونودي بها أين المظفر مالك
فلهفي عليه حين تختلف القنا ... ويرعش للموت الرجال الصعالك
ولهفي عليه يوم دب له الردى ... وديف له سم من الموت حانك
فلو بارزوه يوم يبغون هلكه ... لكانوا ـ بإذن الله ـ ميت وهالك (كذا)
ولو مارسوه مارسوا ليث غابة ... له كالتي لا ترقد الليل فاتك
فقل لابن هند لو منيت بمالك ... وفي كفه ماضي الضريبة بانك
لألفيت هنداً تشتكي علق الردى ... تنوح وتجبوها النساء العواتك

سادتي سقتُ هذه الأبيات لتعرفوا كيف تؤثر العاطفة فتنتظم القلوب أشعاراً سائرة بين الناس. ولو كان الظرف مؤاتياً لوقفت عند كل بيت، وحسبنا الآن أن لا نغفل عما فيها من إبداع وأن لا نغفل عن خصوص أبياته التي ترجمت لنا مواقف مالك يوم يُنادى في مذحج: أين المظفر؟ ثم عن خصوص قوله:

فلو بارزوه يوم يبغون هلكه ... لكانوا ـ بإذن الله ـ ميت وهالك

ولا ننسى جمال هذه الكلمة المعترضة: بإذن الله.

ويقول رجل ـ وقد سُئل عن مالك: ما أقول في رجل هزم بحياته أهل الشام وفي موته أهل العراق. وهي كلمة تكفلت بترجمة حياة.

ويقول ابن أبي الحديد وقد عرض لترجمته بما ملخصه: لو سُئلت عن

أشجع أهل الأرض ـ ما عدا الإمام ـ لقلت مالكاً وأنا غير مبالغ.

ويقول العلماء من المحدثين والمؤرخين كلمات تناسب ما تقدم أضربنا عنها خوف الإطالة.

بقيت كلمة اللجنة في تأبين مالك التي رجوت المحاضرين من الإخوان أن يخصصوا لها يوماً من أيام المحاضرات، وستكون في دراسة شخصيته على ضوء ما درسناه سابقاً من سيرته وقد خصصت لها الفصل الآتي من الكتاب.

ـ ١١ ـ

سادتي، من مجموع ما قرأناه في التأريخ عن سيرته ومن مجموع ما درسناه في هذا الكتاب، استفدنا أن لمالك شخصيةً هي من أعظم الشخصيات العالمية في عصره ومن أخصبها مادة وأوفرها عناصر. وقد لمحنا آثارها في مقاماته في أيام عثمان، وفي أزمة البيعة، وفي أزمة الشام، وفي اهتمام عدوه به ذلك الاهتمام الشديد الذي انتهى بسمه وشهادته. وليس المهم إثبات ذلك الآن، فمَن يتفضل ويقرأ هذا الكتاب يهتدي بنفسه إلى توفر عناصر هذه الشخصية فيه، وإنما المهم أن نلحظ أسرار تكوّن هذه الشخصية أو قُل أن نلحظ أهم العناصر التي أكسبتها هذه القوة والحيوية. وقبل أن ندخل في هذا الموضوع أحب أن أذكر على سبيل:

التمهيد

آرآء بعض العلماء النفسيين في معناها وفي عناصرها، وإليكم أوجه البيان:

سادتي، هذه اللفظة ـ كسائر ألفاظ العلوم التي فيها شيء من الغموض ولا تحكي عن مركب خارجي ـ يتعذر على العالم تعريفها بالحد التام، وقديماً قالت الفلسفة: إن الحدود التامة لا يمكن أن تدرك، لأن الفصل ـ وهو الجزء المقوم للماهية ـ يتعذر على المفن معرفته ولا يعرفه إلا خالقه.

ومن هنا قالوا: إن جميع الحدود الموجودة هي رسوم تامة وإن الفصول التي يمثل بها ليست هي بفصول، وإنما هي أعراض خاصة قريبة من

الفصل. وعلى هذا فالتعاريف التي ذكرها العلماء النفسيون للشخصية، ليست هي إلا رسوماً ناقصة لأنها لم تشتمل على الجنس ـ كما يعبر أهل المنطق ـ وسنذكر لك الآن بعض تعاريفها التي نصوا على أنها تعاريف بالآثار.

قالوا: إنها مجموعة الصفات العقلية والخلقية والجسمية والإرادية التي يتوج بها الإنسان. وهذا التعريف لا يثبت للنقد العلمي، ولا يهمنا ذلك ما داموا أنفسهم يقولون بأنها لا يمكن أن تعلل وحالها كحال الحب والكره، وإنما تلتمس غالباً فيمن توفرت فيه هذه العناصر.

١ ـ الجاذبية.

٢ ـ النشاط العقلي.

٣ ـ المشاركة الوجدانية.

٤ ـ الشجاعة.

٥ ـ التفاؤل.

٦ ـ الحكمة.

٧ ـ التواضع.

٨ ـ حسن المظهر.

٩ ـ قوة البيان.

١٠ ـ الثقة بالنفس.

١١ ـ اعتدال المزاج.

ويضيفونها صفات كمالية لعل أهمها هذه:

١ ـ الذاتية.

٢ ـ الإخلاص.

٣ ـ الحماسة.

٤ ـ قوة الوجدان، أو الإحساس.

وقد اختلفوا فيما بينهم، أفطرية هي أم مكتسبة؟ ولعل الصحيح أن عناصرها الأولية فطرية، ولكنها أشبه بالغرائز قابلة لتلقي التأثيرات الخارجية الناشئة عن البيئة والتربية فهي تضعف إلى حد: يوشك أن تموت وتقوى إلى حدٍّ متناهٍ في القوة، كل ذلك تبعاً لتأثير المؤثرات. وعلى هذا فالعصر قابل للتأثير والبيئة قابلة للتأثير والوراثة قابلة للتأثير.

ومن هنا ترى أن عناصرها تختلف في الضعف والقوة بالنسبة إلى الزمان والمكان. فرب شخصية تقوى فيها صفة الشجاعة أو قوة البيان وتضعف فيها بقية الصفات، ولا سبب في ذلك إلا مقتضيات العصر أو المكان. ورب شخصية تخضع لعناصر أخر غير هذه تبعاً لمقتضيات الزمان.

فالمسلم المؤمن قد يكون من عناصر شخصية تلبسه بالمبدأ وتمسكه بالعبادة على نحو يعرف عنه ذلك أو توفر صفات الثقافة فيه.

وعلى هذا الضوء نجد كثيراً من الرجال لهم شخصيتهم العظيمة، ومنشؤها ـ حسبما أعتقد ـ تظاهرهم بهذه العناصر. فنحن الآن إذا أردنا أن ندرس شخصية بعض الناس، وجب علينا أن نعود إلى عصره وبيئته وإلى تربيته لننظر عناصر الشخصية السائدة إذ ذاك ونطبقها على ما نتوفر في تلك الشخصية من العناصر لنرى مقدار تركزها فيه.

وسيدنا مالك عاش ـ كما رأيتم في هذا الكتاب ـ في العصر الجاهلي حيث كانت الشخصية تقاس بمقياس خاص، فهي تتفاوت بتفاوت تركز هذه الصفات: الشجاعة. الكرم. قوة البيان. الحكمة. الغيرية أو المشاركة الوجدانية. وعاش في العصر الإسلامي حيث توفرت هذه العناصر وأضيف إليها: الإيمان. والإخلاص. والتظاهر بهما. ولعل أهم هذه الصفات عند العرب إذ ذاك:

الشجاعة الثقافة الإيمان

ومن هنا كانت عناية المؤرخين بهذه الصفات. أكثر من عنايتهم بسائر الصفات. وعلى هذا فنحن إذا أرادنا أن ندرس شخصية مالك فإنما ندرس فيه هذه الصفات الثلاث، ونشير في حنايا حديثنا إلى بقيتها رعاية للإيجاز.

الشجاعة

ولا نقصد بها إلا التغلب على قوى النفس جميعاً وتوجيهها كيفما يريد ويريده له المنطق الصحيح. وتظهر هذه الصفة في مظاهر مختلفة تظهر في الصراحة وعدم المواربة في المقامات الهامة التي يلجأ فيها الإنسان للمصانعة إما لخوف أو رجاء.

ومالك ـ كما شاهدناه ـ صريح شديد الصراحة، لا يخاتل ولا يوارب، وحديثه المتقدم مع سعيد بن العاص الذي أنكر عليه قوله: إن هذا السواد فطير لقريش، وأحاديثه مع معاوية في أيام عثمان وأخذه برأسه مع أنه عنده في المنفى، ثم أحاديثه مع عثمان نفسه، أحاديث كلها مرت عليكم في ثنايا الكتاب، وهي تدل على تركز صفة الصراحة في نفسه تماماً، ثم حديثه مع عبد الله بن جرير عامل الإمام على همدان ـ مع دلالته على توفر الذكاء فيه وصدق الفراسة ـ دل على شدة صراحته، وقد مر عليك بطوله فلا حاجة إلى إعادته.

فالشجاعة تظهر في الصراحة وتظهر بضبط النفس في المقامات التي تحتاج إلى ذلك. ومن تلكم المقامات ما اتفق لمالك ـ على ما يحدّث صاحب السفينة ـ أنه مر في السوق فسخر منه بعض الباعة ورماه ببندقة، فلم يلتفت إليه ولم يعره أي شيء من الاهتمام.

ويراه الناس فيأبنونه على ذلك ويقولون فيما يقولون: ما صنعت

بصاحب الإمام ـ مالك الأشتر ـ ويضطرب الرجل ويخاف على نفسه، ومالك ممن سبقت شهرته إلى كل أُذن فملأت فضاءها بأحاديث البطولة والفتك، فلحقه ودخل المسجد فوجده يصلي ويرمي الرجل بنفسه على رجله يقبلها ويستغفر الله مما فعله وهنا ما ترى يصنع مالك؟

إنه أجاب ذلك الشخص بكل هدوء ووداعة: لا بأس عليك إنما دخلت المسجد وصليت لأدعو لك بالمغفرة.

وهذه القضية بالإضافة إلى ما تدل على كثرة حلمه وشدة ضبطه لنفسه، دلت على شدة إيمانه. فهو ـ بدلاً من أن ينتقم منه لكرامته مع أنه زعيم مطلق ـ يقوم بالصلاة والدعاء له بالاستغفار.

وكلمة الإمام في حقه في كتابه إلى أهل مصر ـ حليم في الحذر ـ هي وحدها كافية في التدليل على ضبطه لنفسه، على أن المؤرخين جميعاً وصفوه في أثناء الترجمة بالحلم.

ثم تظهر في اطمئنانه في لقاء الاقران في ساحة الميدان، ومالك أشهر من أن يقال في حقه ذلك. فمواقفه المسجلة في التأريخ من مبدأ ظهور أمره في حروب الردة إلى منتهى صفين مواقف كريمة ـ كما رأيناها ـ يطرب من ترجيعها القروم الأبطال، وقد أثر عن الإمام ما مؤداه لو كانت الجراحات تقتل أحداً لقتلت مالكاً.

وحسبك أن تعلم بأن مقامه من الإمام كان كمقام الإمام من النبي صلى الله عليه وآله وسلم فالنبي كان لا يتكل في الميادين على غير سيف ذي الفقار، وكذلك الإمام كان لا يتكل على غير لج مالك.

وأذكر أنني وعدتك أن أعدّ لك شيئاً من مواقفه في صفين والجمل غير ما ذكرت ولكن الظرف أضيق من ذلك، فمعذرة يا قارئي الكريم على أن مواقفه كلها متشابهة فالاطلاع على بعضها اطلاع على الجميع، ونحن لا

يهمنا من معرفة شجاعته غير أن نستكشف نفسيته الكريمة.

وتظهر بعد هذا كله في مواجهة الأمور الصعاب والتغلب عليها بقلب مطمئن وجأش رابط لا يتزعزع ولا يتحرك، ومالك من خير من يواجه الأمور الصعاب، وهو بهذه الصفات. وموقفه بصفين عندما انهزمت ميمنة العراق ثم قوله في قضية التحكيم: احمل الصف على الصف تصرع القوم، بل كل موقف من مواقفه يدل على تركز هذه الظاهرة فيه.

وعلى كلٍّ فمالك هو خير من توفرت فيه صفة الشجاعة بجميع مظاهرها بعد سيده الإمام كما يقول ابن أبي الحديد.

أما أسرار تركز الشجاعة فيه على هذا النحو فهو ـ في عقيدتي ـ راجع في قسم منه إلى العوامل الوراثية وفي قسمه الآخر إلى أساليب التربية عند العرب، كما رأينا في موضوعنا الأول، وإلى كثرة مزاولته للحروب ثم إلى تأثره بأستاذه الكريم الذي فتح للناس أبواباً في الفروسية والقيادة في الميادين.

وقد درَّبه هذا الأستاذ تدريباً فنياً واختبره مراراً فكان مثال التلميذ الصحيح الذي تأثر بأستاذه تأثراً صح للاستاذ أن يعطيه أمثال تلكم الشهادات القيمة التي تدل على منتهى الكفاءة، فهو سيف من سيوف الله لا نابي الضريبة ولا كليل الحد وهو... وهو... إلى آخر ما قال. وشهادات هذا الأستاذ لتلميذه لم تقتصر على درس واحد وإنما تجاوزته إلى بقية الدروس كدرس:

الإيمان

والإيمان صفة سايرت مالكاً من مبدأ ظهور الإسلام، فهو (المؤمن حقاً) كما يقول النبي ﷺ وقد رأينا في الفصول المتقدمة كيف قدم نفسه ضحية لمبدئه من أيام عثمان. وما إنكاره على ولاة عثمان وتعريضه نفسه

للإهانة والنفي ـ مع أنه زعيم العراق المطلق أو كما يقول بعض المؤرخين بأنه في الكوفة أسود من الأحنف في البصرة ومع أنه يستطيع أن يصول بثلاثين ألفاً من قبيلته مذحج ـ فمرة إلى الشام وأخرى إلى حمص وثالثة إلى المدينة، وهو في كل ذلك لا يسمع إلا سباً وشتماً وإهانة.

وقد مرَّ عليكم عمل عبد الرحمن بن خالد والي حمص به وبأصحابه. وما تعريضه هذا إلا مثل لإيمانه وإلا فما الملجىء له إلى الإنكار مع أنه يستطيع أن يكون كسائر الزعماء يأخذ حقه من عثمان وهو في هدوء وسكون.

ثم ما تضحيته مع الإمام في حرب الجمل وصفين في تلك الوقائع التي يشيب من هولها الأطفال ألا بذلك الدافع الكريم. وقد رأينا نحن أحاديثه في المواقف المهمة التي يختفي بها العقل الواعي، فرأينا أحاديث لا يشيع فيها غير حديث الإيمان وحديث التضحية في سبيل الدين الحنيف.

وعبادة مالك أشهر من أن تحتاج إلى تفصيل. فقد اشتهرت في زمنه وصارت في عداد صفاته التي يعرف بها بين الناس. وهذا الرجل الذي وقف بين الصَّفّين في يوم الجمل وحذر فتيان قريش من صولته حين قال: أحذركم الرجلين العابدين جندب والأشتر ـ لم يعرفه للناس ابتداءً بغير العبادة.

ومن هنا عد جملة من المؤرخين في صفاته صفة العبادة والإيمان. وحسب مالك أن يشهد النبي له في مقامين بالإيمان ـ وقد مرَّا عليك ـ ثم حسبه أن يقول الإمام في حقه في كتابه إلى محمد بن أبي بكر: إن الرجل الذي كنت وليته مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضي الله عنه وضاعف له الثواب.

وما أدري بماذا أعلل هذا الإيمان الذي تنطق به كل جارحة من

جوارحه؟ ولعله يعود معظمه إلى وفرة عقله وإلى سلامة تفكيره، والرجل المفكر الكامل لا يستطيع أن يتحلل من نوازع الإيمان الفطرية. وقد رأيت أنا بنفسي شباباً تمردوا على الدين في مبدأ حياتهم، ولكنهم عندما استكملوا نضوجهم الفكري عادوا إلى الاستسلام إليه.

ومالك وافر العقل ناضج التفكير كما تدل عليه ثروته القيّمة من الثقافة التي احتفظ التأريخ بنماذج منها. وقد رأينا في أحاديثه المتقدمة لفتات نفسية تدل على وفرة العقل والذكاء ـ وقد شاهد سخافات الجاهليين ـ ولعل عقليته الفتية كانت تأبى عليه الاستسلام لها.

ولما رأى الإسلام ورأى تعاليمه وجد نفسه منقاداً إلى عقله ليلقيه في أحضان الدين الذي خلصه من تلكم السخافات. والإنسان إذا وجد ضالته صعب عليه أن يتركها من يديه، لذلك يسوؤه أن يصاب الإسلام بأقل شيء، وقد تكون من العوامل ثقافته الواسعة.

فالإسلام كان قد غزى الناس من وجهة البلاغة فجاءهم بمعجزه الخالد القرآن، والمثقف بطبعه يدرك ما في القرآن من أسرار الاعجاز، فيخضع لعظمته ويستسلم للإيمان بمبدعه المجيد. وهنا يجب أن نلحظ هذا العنصر الثالث في مالك لنرى مقدار تركزه فيه، عنصر:

الثقافة

ولا نريد بالثقافة إلا معناها العام وهو العلم والأدب، ثم لا نريد بالعلم إلا ما كان شائعاً في العصر الاسلامي كالفقه والحديث وكعلم التفسير وعلم السياسة. والتأريخ لم يحفل بتسجيل النماذج لعلمه كما احتفل في تسجيل النماذج لأدبه، لأنه لم ينظر الاشتر إلا بعين الزعيم الصوال والقائد المدرب والخطيب المفوه والشاعر المبدع. ونحن لا نطمئن إلى أنه كان بعيداً عن

هذه العلوم وهو ـ كما رأيناه ـ من أعظم تلامذة الإمام. والإمام عليه السلام نفسه وجده أهلاً لتلقي كتابه في علم السياسة، فألقاه عليه ولم يلقه على غيره من الولاة ـ على كثرتهم وجلالة قدر بعضهم.

وكتب الدراية سجلته في عداد المحدثين من التابعين، وسجل المترجمون اسمه الكريم في عداد العلماء الكبار من أصحاب الإمام، والنواميس الاجتماعية تقتضي ذلك. فمن ذا يصاحب باب مدينة العلم أقضى الناس وأعلم الناس ولا يدخل المدينة من طريقها المقدسة؟ ومن ذا يحمل مثل ذلك العقل الجبار ولا يزينه بحلية العلم؟ على أن العصر والبيئة كانا يقتضيان ذلك.

ولكن التأريخ لا يسجل إلا ما يهمه، ولا يهمه من مالك إلا أحاديث بطولته وأدبه لأنها الصفات الغالبة على نواحي حياته. فهو قد اعتنى بأدبه عناية خاصة كما اعتنى بشجاعته فسجل له شعراً قد يزيد على المئة بيت، ولكنه مع ذلك لم يسجل له من الشعر إلا لوناً مخصوصاً وهو اللون الذي تشيع فيه احاديث البطولة أو قل هو الذي يصور نفسية مالك القائد العسكري الهائج.

وقد مرت عليكم في الكتاب أراجيزه الفنية في ميدان القتال، وقد مرت عليكم في حرب الجمل أبياته في تصوير حديثه مع عائشة عندما سألته عن شؤونه مع ابن الزبير، ثم أبياته في تصوير حاله مع ابن طلحة التي يقول فيها:

هتكت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعاً لليدين وللفم

وهي أبيات كنت أحب أن أقف عندها بشيء من التحليل، وكنت أحب أن أقف عند خصوص قوله: هتكت له بالرمح جيب قميصه.

ففي هذه الاستعارات ـ المتوالية: هتكت. جيب. قميص. مع هذه السلاسة في التعبير، إبداع يطرب لحسنه السادة من علماء البيان. وهذه الأبيات ـ كما قلت ـ تقرب من الشعر الوصفي ولكنها مع ذلك تحتفظ بطابعها العسكري.

وهناك أبيات لم نذكرها في أحاديثنا السابقة وهي نفسها تحمل ذلك الطابع الكريم، وهاكم الآن هذه الأبيات التي قالها في صفين حين قال: إنني مناجز القوم إذا أصبحت:

قـدنـا الفصـل فـي الصبـاح وللسلـ	ـم رجـال وللحـروب رجـال
فـرجـال الحـروب كـل خـدب	مقحـم لا تهـده الأهـوال
يضـرب الفـارس المـدجـج بـالسيـ	ـف إذا قـل فـي الـوغـى الاكفـال

ثم يوجه الخطاب إلى ابن هند وهو يستعجزه بقوله:

يـا ابـن هنـد شـد الحيـازيـم للمـو	ت ولا تـذهبـن بـك الآمـال
إن فـي الصبـح إن بقيـت لأمـراً	تتنـادى مـن هـولـه الابطـال
فيـه عـز العـراق أو ظفـر الشـا	م بـأهـل العـراق والـزلـزال
فـاصبـرن للطعـان بـالأسـل السمـ	ـر وضـرب تجـري بـه الامثـال
إن تكـونـوا قتلتـمُ النفـر البيـ	ـض وغـالـت أولئـك الآجـال
فلنـا مثلهـم ـ وإن عظـم الخطـ	ـب ـ قليـل أمثـالهـم أبـدال
يخضبـون الـوشيـج طعنـاً إذا جـر	ر للمـوت بينهـم أذيـال
طلبـوا الفـوز فـي المعـاد وفـي ذا	تستهـان النفـوس والأمـوال

وينتهي هذا الشعر إلى معاوية، فيصدر شهادته في حقه ـ شعر منكر من شاعر منكر رأس أهل العراق وعظيمهم ومسعر حربهم وأول الفتنة وآخرها ـ وهي شهادة نرجو أن لا يفوتنا ما فيها من الإكبار لشعر مالك ولمقام

مالك في ميادين القتال.

وأبياته هذه من خيرة الشعر العربي فقد جمعت إلى الطابع العسكري دقة الوصف بالأسلوب السهل الجميل وبيته الأول:

قـدنـا الفصـل فـي الصبـاح وللسـ ـلـم رجـال وللحـروب رجـال

يحمل مثلين عربيين هما من أجلّ الامثال وأجمل الأمثال (للسلم رجال) (وللحروب رجال) ثم وصفه لرجال الحروب ذلك الوصف الدقيق الذي صدر عن خبرة فنية كبيرة.

فرجال الحروب كل خدب لا تهده الأهوال، وهو لا يقابل إلا الفارس المدجج بالسلاح يعلوه بالسيف. وهذا الالتفات من الوصف إلى نداء ابن هند، ثم هذا التهديد الذي جمعه في أبياته، وهذه الذكرى للنفر البيض من أصحابه الذين قتلوا في حروب الشام وكان عندهم أبدال لهم على أن أبدالهم قليلون، وهذه اللفتة الأخيرة التي طفحت على لسانه ومهدت العذر للمؤرخين الذين لم يعتنوا بشيء كعنايتهم بذكر هذه الصفات: الإيمان. الشجاعة. الثقافة.. هذه اللفتة الأخيرة التي دلت على تركز الإيمان في نفسه:

طلبـوا الفـوز فـي المعـاد وفـي ذا تستهـان النفـوس والأمـوال

هذه الأمور كلها مع هذا الأسلوب هي من خير ما سمعناه من الشعر العربي في صدر الإسلام. وما أدري كيف غفل نقادنا القدماء الذين يرسلون الأحكام لمجرد رغبتهم في الشعر كيف غفلوا عن خلع لقب أشعر الشعراء عليه؟

فأبياته التي سجلها المؤرخون ـ كما رأيتم وسمعتم ـ لم تكن لتحمل غير هذا الطابع الوصفي وإن ضمت إليه في بعضها الطابع العسكري ـ كما

قلت مراراً ـ ونحن لا نكاد نصدق أن الأشتر يستطيع أن يخصص شعره في هذا الفن ويترك سائر الفنون، وعلى الأخص الفنون التي كانت شائعة إذ ذاك كالفخر والكرم أو ما شاكل ذلك، وكبكاء الأطلال والغزل. وإن كنت أعتقد أن جل شعره في أيام الشبيبة لم يعطه أهمية ليحتفل به التأريخ وربما ساعد هو على قبره في قلوب الأجيال فلم يعرف له خبر.

نعم احتفظ التأريخ بأبيات ربما تشير بطرف خفي إلى بعض هذه الفنون وقل إلى تركز بعض الصفات ـ التي يفخر بها الشعراء من العرب كالمشاركة الوجدانية وطلب المعالي ـ في نفسه فهو يقول من أبيات:

بقيت وفري وانحرفت عن العلى	ولقيت أضيافي بوجه عبوس
إن لم أشن على ابن هند غارة	لم تخل يوماً من ذهاب نفوس
خيلا كامثال السعالي شزبا	تغدوا ببيض في الكريهة شوس
حمي الحديد عليهم فكأنه	ومضان برق أو شعاع شموس

وأظن مثل هذا القسم بهذا الاسلوب من خير ما يستفاد منه نفسية هذا الرجل، فهو لا يقسم إلا بارتكاب أصعب الأشياء عليه، وما هذه الأشياء: إبقاء وفره، انحرافه عن العلى، لقاؤه لأضيافه بوجه عبوس.

وكأن هذه الصفات لا يتصور الأشتر أصعب منها، لذلك حاول أن يوطن نفسه على ارتكابها إن لم يشن الغارة على ابن هند.

وهذه الأبيات ربما نستفيد منها ما ينقله المؤرخون بإجماع أن صفة المشاركة الوجدانية كانت متوفرة فيه. فتبديد أمواله يدل على أنه كان يعطي الأموال من دون حساب، وابتسامته للضيوف وطلبه للعلى، والعلى عند العرب عطف على الفقير وإكرام للضيف ونجدة للمستجير و. . . و. . . كل ذلك مما يدل على توفر هذه الصفة فيه. وهذه اللهجة التي ساق بها هذا

القسم مما تساعد على ما قلناه.

الأبيات هذه صادفت عناية النقاد قديماً فسطروها في كتبهم. ومن طريف ما رأيت في كتاب الإصابة أن ناقداً من النقاد الذين ينسبهم صاحب الإصابة إلى المتأخرين يستهجن قوله ـ ابن هند ـ ويرى أن يكون مكانها ـ ابن حرب ـ احتفاظاً بمراعاة النظير، ولكن صاحب الإصابة يقول: كلا بل بينهما فرق كبير، نعم هي أنسب بطرائق المتأخرين وأما فحول الشعراء فإنهم لا يعتنون بذلك بل نسبة خصمه إلى أمه [هند] أبلغ في نكايته.

وقد مثل بها صاحب أنوار الربيع السيد علي خان لصنعة القسم من كتابه إذ يقول: ومن الغايات في ذلك قول مالك الأشتر... ثم يسطر الأبيات ويعلق عليها بقوله: فتضمن هذا الشعر الوعيد بالقسم بما فيه الفخر العظيم من الجود والكرم والشرف والسؤدد والبسالة والشجاعة ـ إلى أن يقول ـ ولعمري لقد بر بقسمه في صفين وأبلى بلاءً لم يبله غيره.

وفي معجم الشعراء أبيات له حلوة تدل على روح رقيقة شفافة تتجلى من خلال هذه الأبيات:

وما برحت مثل المهاة وسابح	وخطارة عبر السرى من عياليا
أقاسمهن العيش في الفقر والغنى	وندفع عنهن السنين احتياليا
فهذا لإيام الهياج وهذه	للهوي وهذي عدة لارتحاليا

وهذا الجمع على هذا النحو غاية في الابداع.

بقيت الناحية النثرية وقد مرت عليكم نماذج كثيرة منها. ومنها خطبه بصفين وبعض كتبه ككتابه لعائشة. والآن أسوق إليكم خطبة من خطبه قالها بقناصرين وهو على فرسه الأدهم لم أذكرها فيما تقدم وهي:

الحمد لله الذي خلق السموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما

في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، أحمده على حسن البلاء وتظاهر النعماء حمداً كثيراً بكرة وأصيلاً، من هداه الله فقد اهتدى ومن يضلل فقد غوى.

أرسل محمداً بالصواب والهدى فأظهره على الدين كله ولو كره المشركون صلى الله عليه وآله، ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقدر أن ساقتنا المقادير إلى أهل هذه البلدة من الأرض فلفت بيننا وبين عدو الله وعدونا، فنحن بحمد الله ونعمه ومنّه وفضله قريرة أعيننا طيبة أنفسنا نرجو بقتالهم حسن الثواب والأمن من العقاب.

معنا ابن عم نبينا وسيف من سيوف الله علي بن أبي طالب عليه السلام صلى مع رسول الله لم يسبقه إلى الصلاة ذكر حتى كان شيخاً لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة ولا سقطة، فقيه في دين الله تعالى عالم بحدود الله ذو رأي أصيل وصبر جميل وعَفاف قديم، فاتقوا الله وعليكم بالحزم والجد واعلموا أنكم على الحق وأن القوم على الباطل.

انما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدريين قريب من مئة بدري سوى ما خولكم من أصحاب محمد، أكثر ما معكم رايات فقد كانت مع رسول الله. وعدونا مع رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله، فمَن يشك في قتال هؤلاء إلا ميت القلب.

أنتم على إحدى الحسنيين إما الفتح وإما الشهادة، عصمنا الله وإياكم بما عصم به من أطاعه واتقاه وألهمنا وإياكم طاعته وتقواه وأستغفر الله لي ولكم.

وهذه الخطبة ـ كسائر خطبه ـ فيها لفتات نفسية حلوة تدل على تعمقه في فن الخطابة. فتنقلاته في حديثه تنقلات فنية جداً، فحمده حمد فني

للغاية واختياره للألفاظ التي حمد الله بها تدل على تركز صفة البطولة في نفسه، فهو لا يختار من صفاته إلا صفات الاستيلاء على العرش والاستيلاء على ما في السماوات وما في الأرض، والقائد أول ما يتصور صفة الاستيلاء. ثم انتقاله إلى النبوة، التي أرسل بها محمداً فأظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون كره على هذا النحو من الانتقال واختياره لهذه الآية التي فيها ألفاظ: أظهر. كره، يدل على كل ما قدمناه.

وانتقاله أخيراً إلى الإمام ورأيه في الإمام واختياره لتلكم الصفات ثم هذا اللون من التسجيع والتثبيت، كل ذلك مما يصور لنا إيمانه وبطولته.

أما أسرار ثقافته والعوامل التي أثرت عليه فكونت منه ذلك المثقف القدير، فعوامل بيئية كما رأينا في أساليب التربية عندهم في موضوعنا الأول. وقد صادفت في نفسه قابلية واستعداداً لتقبل التأثيرات عليه وساعدها على ذلك إقبال الإسلام بألوانه الثقافية الجديدة فتأثر بالقرآن وبالسنة النبوية ثم تأثر بعد ذلك كله بكلام أستاذه الإمام الذي قيل في تحديد قيمته: فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق. فكانت تظهر آثار ذلك التأثر في خطبه وقد رأينا سابقاً أن خطبه جميعاً تقرب كثيراً من خطب الإمام عليه السلام.

سادتي، هذه أهم العناصر التي أثرت على شخصيته فأبرزتها بهذه الصورة العظيمة. أما سائر العناصر التي عدها العلماء ـ النفسيون ـ فكلها موجودة فيه ومن يتصفح ما كتبناه لا يعدم الشواهد على ذلك ـ كما قلنا سابقاً وكما رأينا في ثنايا حديثنا هذا ـ وهاكم الآن شيئاً منها:

على سبيل المثال

وليكن هذا الشيء في الحديث عن جاذبيته فهي أهم العناصر بعد ما ذكرناه، وهي في مالك أظهر من أن يُكتب عنها. وحسبنا الآن أننا لا نستطيع

أن نتصورها دون أن ننجذب إليها مأخوذين، والحوادث المتقدمة مملوءة بحديث الجاذبية فإرجاعه لميمنة العراق وتأثيره في خطبه على الناس مثالان من أمثلة ذلك. وكلمة بعض المؤرخين بأن الكوفة ما تقاعست عن الإمام إلا بعد موت مالك خير ما يصورها تماماً.

سادتي ـ لقد أطلت في التحدث عن شخصيته وما سر ذلك إلا انجذابي إليها ـ كما قلت ـ فاسمحوا لي أن أختم الحديث، والسلام عليكم.

- ١٢ -

هذه فصول كان الدافع الأول لتدوينها هو الاستجابة لدعوة اللجنة التي أخذت على عاتقها أن تقوم بتجديد ذكرى أبطال الإسلام. والغرض من تجديدها هو إرسال سيرتهم بين الناس بما تحمل من أخلاق. وقد رأت اللجنة أن مالكاً كان من أعظم الشخصيات الإسلامية وأن العصر يقتضي دراسة أمثاله، لتكون سيرتهم من المثل العليا للمجتمع.

وفي عقيدتي أن في دراسة أمثاله ثروة كبيرة للمجتمع الحاضر، الذي يحتاج - أكثر ما يحتاج - إلى أمثاله من الرجال المخلصين الذين توفرت فيهم عناصر الإيمان بالمبدأ والإخلاص له والتضحية في سبيله.

والشرق اليوم محتاج إلى هذه العناصر الثلاث قبل احتياجه إلى أي شيء وما تقدُم أسلافنا من القدماء - رحمهم الله - إلا لتوفر هذه العناصر فيهم، وإلا فنحن اليوم أقوى عدة وأكثر عدداً ولا ترانا صانعين بعض ما صنعوه. وقد ساءني كثيراً أن تقوم بعض الدعايات التي لا يعرف مصدرها، فتجرف بعض شبابنا - حرسهم الله - إلى الاستهانة بمقدساتهم الروحية بحجة أن الدين لا يساير موكب الحياة.

لا يا إخوان، إن الدين لا ينافي أي تقدم علمي أو صناعي أو . . أو . . والدين ما خلق إلا لتنظيم حياتنا تنظيماً ملائماً للمنطق الصحيح وإلا لتركيز عناصر الأخلاق المثالية في نفوسنا.

فإلى الدين يا شباب. وإلى العلم يا شباب. وإلى الحضارة إلى الحضارة. فإن الحضارة الصحيحة هي التي تجمع بين هذين، ولا تضايقكم

هذه الدعاوات فتجعلكم على الهامش. قووا مراكزكم بالتمسك بمبادئكم، فوالله لن يغلبوكم على شيء ما دمتم كذلك ويأخذ الله بأيدي الجميع، أيها الشاب المسلم.

أيها الشاب العربي

إن لجنة المجمع بما تضم من شيوخ وشباب، حاضرة لرفع أية شبهة تختلج في خاطرك حول مبدئك، وحاضرة إلى الإجابة عن كل سؤال يرد عليها حول هذا الموضوع، وهي لا تقول ذلك إلا والمراجع المختصة في النجف وغيرها تساعدها وتعاضدها على مهمتها هذه.

أما بعد فقد آن لموكبنا أن يساير المواكب وأن يتقدمها إلى الإمام، فنحن ـ والحمد لله ـ ما تقدمت الحضارة إلا وكشفت عن كنوز ثمينة كانت مخفية عندنا قبل هذا اليوم، فاستيقظوا يا نائمين ووحدوا الهدف ولا تخبطوا خبط عشواء في دياجي الظلام.

ضعوا سيرة هذا البطل بين أعينكم وتأثروا بإيمانه وإخلاصه وتضحيته لمبدئه فإنها خير دليل.

أيها السادة، لقد رجعت في دراسة هذه السيرة إلى ما يقارب الخمسين مصدراً ولخّصت جملة ما فيها بهذه الصفحات وقد حاولت جهدي أن أختصر رعايةً لعواطف اللجنة التي حددت لي مقدارها على أني تجاوزتها بما يقارب الثلاثين صفحة.

ولا يفوتني أن أذكر بعض ما رجعت إليه من المصادر، وقبل أن أذكرها أحب أن أشكر الشاب الفاضل الشيخ أحمد المظفر، فقد استعنت بفهارسه التي صنعها لقسم من الموسوعات، فوفّر عليَّ بعض الوقت كما أنني استعنت بشيء من مذكراته في هذا الموضوع وإليكم أوجّه أهم ما رجعت إليه:

أعيان الشيعة جزء ٣، **للسيد محسن الأمين**

شرح نهج البلاغة، **لابن أبي الحديد المعتزلي**

تأريخ الأمم والملوك، **لابن جرير الطبري**

تأريخ الكامل، **لابن الأثير**

العقد الفريد، **لابن عبد ربه**

مروج الذهب، **للمسعودي**

سمو المعنى، **للعلائلي**.

سفينة البحار، **للشيخ عباس القمي**

أبو ذر، **للشيخ عبد الله السبيتي**

التأريخ المختصر، **لأبي الفداء**

الإصابة، **لابن حجر**

تنقيح المقال، **للشيخ عبد الله المامقاني**

وقعة صفين، **لنصر بن مزاحم**

الإمامة والسياسة، **لابن قتيبة**

الأخبار الطوال، **لأحمد بن داود**

عبقرية الإمام، **لعباس محمود العقاد**

الراعي والرعية، **لتوفيق الفكيكي**

عيون الأخبار، **لابن قتيبة**

أسبوع الإمام، **لجنة المجمع الثقافي الديني**.

الفهرس